

يوسفه خضبان

سجناء في قصر الزوجية

دراسات في الامن الاجتماعي

الفهرست

- الاهداء
- المقدمة.....
- التفكك الاسري
- جذور التفكك الاسري .
- أولاً..الانفلات القيمي..
- ثانياً.. الانفلات الروحي
- ثالثاً..الانفلات الاداري
- رابعاً..الانفلات اجتماعي
- ملامح التفكك الاسري**
- أولاً..التوتر الاسري**
- أسبابها
- أ..فقدان اللغة المشتركة
- ب..أزمة الحوار والتفاهم
- ت..فقدان التوازن الشخصي
- ملامح التفكك الاسري
- ثانياً.. الطلاق.....**
- أسبابها
- أ..الأختيار السيء
- ب..الانهيار الاجتماعي
- ظواهر الانهيار الاجتماعي**
- أولاً..ظاهرة الفساد الاخلاقي
- ثانياً..العلاقات غير المشروعة
- ثالثاً..المحرمات المحللة
- رابعاً..الكرامة الممتهنة
- ملامح التفكك الاسري
- ثالثاً.. تجميد العلاقة الزوجية**
- ملامح التفكك الاسري
- رابعاً..الخيانة الزوجية ..**
- ملامح التفكك الاسري
- خامساً..وضاع الأولاد...**
- ظواهرها..
- أولاً.. ظاهرة عقوق الابناء
- ثانياً..ظاهرة الانحراف الاخلاقي
- ثالثاً..العزوبية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء ...

- **الى السجناء الذين حكمت عليهم الاقدار بالسجن المؤبد
داخل قفص الزوجية وهم يرجون قرار الافراج من
عزرائيل ..**

- **الى الذين يتحينون الفرص للهروب من السجن عبر الاتفاق
والطرق الملتوية المليئة بالمخاطر ..**
- **الى أبنائنا وبناتنا الذين يسعون لبناء عش الزوجية الجميل
حتى لا يحولوا عشهم الذهبي الى سجن وهم الى سجناء ..**
- **الى الاحرار الذين يخلقون في سماء عش الزوجية ويتمتعون
بنسيم الامن والسعادة في ظل الحوار الهادئ البناء كي لا يقعوا
في فخ التوتر الاسري فيصبحوا سجناء , وبيوتهم السعيدة الى
سجون ..**
- **الى السجناء الاحرار الذين يدفعون ثمن عذابات الماضي كي
يقرروا خوض تجربة جديدة لبناء عش سعيد جديد مستفيدين
من كل التجارب الماضية ..**
- **الى الامهات الصالحات اللاتي يبذلن ارواحهن وراحتهن
بمفردهن بعد أن فرقت الاقدار عن أزواجهن في سبيل تشييد
أجيال كفؤة قادرة على تحمل مسؤولية الحياة بحكمة وأمانة
وأخلاص ..**
- **الى الرازخات في قعر السجون الصابرات على سوء تعامل
أزواجهن في سبيل حماية ماتبقى من عشهن المتهاوي ..**

• الى الابناء الذين تمردوا على سلطة الابوين المقدس وهم
ينتظرون الايام التي تحمل اليهم أبناء متمردون ..

الى أولئك جميعا نهدي هذا البحث المتواضع..

المقدمة

على صفحات مباحث العلوم الاجتماعية لا يختلف اثنان في تشخيص مفهوم الاسرة اليوم عنه من البارحة ، سواء على صعيد الاطر العامة أو على صعيد القواعد التحتية لها . فالاسرة منظومة اجتماعية تتشكل من الأب والأم والأولاد ، وهي نفسها منذ قدم التاريخ الى يومنا هذا ، ولاتتشكل الا باشتراك الاب والأم في شراكة عقدية تستمر ضمن الاطر والقواعد المتعارف عليها ، بيد ان ما يختلف عنه اليوم هو السلوك الاسري الذي يتخذ مسارات تختلف كثيرا او قليلا عما كان عليه بالامس .

السلوك الاسري .. ماذا يعني ؟

علاقة الاسرة بالقيم والمبادئ العليا ، وما يترتب عليها من اخلاقيات ومواقف تجاه ابناء الاسرة او المحيطين بهم او تجاه المجتمع ، وكل موقف باتجاه مايجري خارج الاسرة من ثقافات وسياسات وأخلاقيات وقيم ، وكل اطلاق صادر من الاسرة لما يجري في العالم من احداث ، ولما يساق اليها من عادات اجتماعية او موزات عصرية هي محددات السلوك الاسري واطارها العام .

يقول د.تشارد هلمستتر احد علماء الاجتماع ومؤلف كتاب (ماذا تقول عندما تحدث نفسك)
أن السلوك هو مانفعله أو مالا نفعله، وكيف نتصرف ؟ وكيف لا نتصرف ؟

وما يهمننا في هذه الدراسة هو تحليل السلوك الاسري في زمن العولمة وتقويم ما أعوج منه بسبب تتصل الامة عن مبادئها العليا واصابتها بالوهن ومارافق ذلك من اعراض خطيرة اصابت الكثير من مجتمعاتنا كعقوق الوالدين ، وعقوق الابناء ، والتفسخ الاخلاقي ، والعزوبية ، والامتهان الاسري ، والخيانة الزوجية ، والمظاهر الفاسدة وغيرها .
من خلال هذه الرحلة الى اعماق السلوك الاسري المعاصر سوف نكتشف بان كل ما مر من مظاهر ، سواء ماكانت تتعلق بعلاقة الزوجة مع زوجها ، أو علاقة الابناء بالوالدين ، او كانت تتعلق بظاهرة الميوعة والتحلل والفساد والجريمة ، كلها انعكاسات او لنقل اعراض مرض عضال مس مجتمعنا بالصميم نعبّر عنه بالتفكك الاسري .

التفكك الأسري

يتبادر الى الذهن من اول وهلة في الحديث عن التفكك الأسري مسألة الطلاق ، وهي بلا ريب عنوانا اساسيا من عناوين التفكك ، وظاهرة من عشرات الظواهر الاخرى التي لاتنفك عن بعضها .

هناك افات وأزمات وظواهر اخرى لاتقل خطورة عن الطلاق ، كظاهرة الخيانة الزوجية والادمان على المخدرات ، والانتحار ، فضلا عن ازيمات تساهم في صناعة المناخ الاجتماعي السلبي الذي ينشأ في كنفه الطلاق وغيره من المظاهر السلبية الاخرى كالاهاانة النفسية والجسدية والهجر ، كما ان هناك افات خطيرة تخرج من ظاهرة الطلاق كالعزوبية وغلاء المهور والفساد الاخلاقي وغيرها .

وعليه فالتفكك الاسري يعد عنوانا واسعا يشمل كل اساءة صغرت او كبرت داخل كيان الاسرة ، لانستهين بصغرها كبذاءة اللسان ، ولانقلل من كبرها كالاساءة عبر التمرد الأسري والطلاق مثلا ، معتقدين بأن الاستهانة بالمشاكل الأسرية الصغيرة ستقودنا الى التورط في الكبيرة منها ، باعتبار ان المشاكل الكبيرة هي من بنات الصغيرة التي قد نغض الطرف عنها احيانا كثيرة .

وقبل ان نخوض في التفكك الأسري ومظاهرها ، لابد من الالمام بجذورها الاساسية التي نلخصها بما يلي :

جذور التفكك الأسري

أولا : الانفلات القيمي

القيم هي منابع الطاقة الحركية التي توجه الانسان في دروب الحياة ، وخزين الكلام الذي يتحرك عبره اللسان ، والداينمو الذي يصنع المواقف والآراء ، وجهاز المناعة الذي يمتص المواقف اللامسؤولة ، وجرس الانذار الذي يدق ناقوس الخطر، وهي المعايير التي يغرسها الأبوان في شخصية الأبناء لتشكل الثقافة والوعي اللذان يوجهان نحو الخير او الشر . فالقيم

الالهية كالصدق والكرامة والحب والحنان وبقية الفضائل الاخلاقية النبيلة التي تدفع الانسان باتجاه التسامح والايثار وحب الناس واحترام الاخرين ، فتتدفق منها الشعور بالمسؤولية والتفاني والعطف والرحمة هي التي تصنع سقفا امانا يحمي الاسرة من الفتن التي تمطر على سماء المجتمع بين الحين والآخر ، من قبيل العادات والاخلاقيات الشاذة كالزواج الميسار والعرفي والمخدرات وغيرها ، وتلك القيم هي التي تسد النوافذ والابواب وتحمي الاسرة من نفوذ الدخلاء عبر اجهزة الحاسوب والمسلسلات المدبلجة الهابطة التي دخلت بيوتنا . ان الكثير من هذه القيم مقدسة في أي مكان في العالم ، فقيمة العطف والحنان والتوجيه التربوي لا تختلف عنها الأمهات كن سواء كن في لوس انجلس او طرابلس ، وقيمة صلة الرحم لا تختلف عليها أب سواء كان في جبال هماليا او مكسيكو ستي ، والاب اللامبالي هو اب سئ الصيت سواء كان في العراق او سويسرا ، وام ترعى اولادها بالحب والحنان والتربية الصالحة هي ام مثالية سواء كانت من اتباع الديانة النصرانية او اليهودية ، وكذا تمرد البنت او الابن وعقوقهما هي تمردا قيما قبل ان تكون عاهة اجتماعية . وكما ان تلك القيم هي التي تضمن سلامة السلوك الاسري فان الانفلات عنها هي التي تسب في إنهيار الكيان الاسري ، والتفكك الذي اجتاح الكثير من مجتمعاتنا سببه الهروب الكبير الذي تشهده الاسرة من تلك القيم ، لذلك نرى تماسك الاسرة بشكل جلي في المناطق النائية عن سطوة العولمة رغم معاناتها وحرمانها من الكثير من مستلزمات الرفاه والمدنية .

يقول الله سبحانه وتعالى في معرض وصف الامم التي تمردت على قيم السماء ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى)) [طه: 124-126]

ثانيا : الانفلات الروحي

اذا كانت القيم والمبادئ تلعب دور المهندس الذي يرسم خارطة الطريق الى شاطئ السعادة والحرية والامان ، والقائد الذي يقود الانسان الى بر الامن والسلام ، فان الروح هي الشاطئ وهي السعادة والحرية والامان بذاتها ، بل هي جوهر الحياة واصلها . بالروح يحيا الانسان وبدونه يموت ، وهي الرابط الحيوي بين الانسان والخالق من جهة ، وبين الخالق والانسان من جهة اخرى ، وبها تحيا القيم وتثبت ، وبدونها تتبخر وتهرب ، فالروح للانسان كجهاز الاستقبال Receiver الذي يستقبل الذبذبات ليحولها الى صوت وصورة ، ولكنه لايعمل الا بالارتباط بالخالق الكون سبحانه وتعالى الذي يبث الذبذبات ويرسلها الى جهاز Receiver ، فان كان الجهاز مقفلا فلا يستقبل شيئا ولايعمل ، فذلك هي الروح للانسان ، وهذه هي فلسفة العبادات وجوهرها ، فهي تكمن في تقوية الجانب الروحي في الانسان أولا .

وفي سلسلة من الابحاث العلمية من جامعة **University of British Columbia** إنه لولا الايمان بالله لم تستمر الحياة على الارض وانه يساعد الانسان ليعيش حياة اجتماعية افضل كما ويجعل الانسان محبا لمساعدة الاخرين ويحب الخير لغيره ويؤثرهم على نفسه، ويقول

البرفسور **Norenzayan** من قسم علم النفس في الجامعة المذكورة اردنا ان نكتشف الدليل العلمي على تأثير الدين على سلوك الناس وأن الايمان يجعل الانسان أكثر سعادة وتفاؤلاً عكس اللادينيين الذين لديهم مشكلة مع السعادة والتفاؤل.

تأثير الروح على الأسرة

إذا تشبع القلب (مركز الاشعاع الروحي) بالايمان ، وتزود بالروح دفعته قوة جبارة باتجاه القيم والمبادئ ، ليطمسك بها الانسان ويحوها الى ممارسة وسلوك ، الى مودة من الزوجة ، وحب للاولاد وتفاني من اجل سلامة الاسرة.

(ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمة ان في ذلك آيات لقوم

يتذكرون) - سورة الروم آيه 21

المودة والرحمة هي في الواقع افراس القوة الروحية النابعة من القلب لتثبت الى قلب من تحب وتود ... الى قلوب الابناء ليرتبط بهم بوشائج الروح قبل المادة ، والمودة الخالصة قبل المصلحة ، والرحمة قبل الطعام والشراب والملبس ..

العلاقات المادية والمصلحية بين الابوين والاولاد ، وبين الابوين انفسهم رغم اهميتها النسبية الا انها لاتدوم بل تنهار عند اول عقبة تعترض طريق الاسرة ، وماسبب عقوق الابناء إلا لجفاف العلاقات الروحية بين الاباء والابناء ، واكتفاءها بالعلاقة المادية التي سرعان ماتتهاوى عندما يستغني الاولاد في اول عمل وظيفي !

فاذا تقطعت الاواصر الروحية بين الاباء وخالق الكون وتخلى الاباء عن الصلاة والصيام والدعاء وقراءة القران جفت منابع الروح في قلوبهم وابتعدت عن القيم والمثل العليا ، لتبدأ سلسلة الازمات والمشاكل بين الزوجين ، ثم بينهما وبين الابناء .

مشكلة التفكك تكمن في جذب التواصل الروحي والعبادي مع الخالق وسيادة النظرة المادة

والمصلحية في العلاقات الداخلية الاسرية ، فعقوق الابناء او الاباء مثلاً هي بسبب فقدان التعامل الروحي بين ابناء الاسرة ، وكذا مشكلة الفساد الاخلاقي ، وسوء الخلق ، وظاهرة امتهان الكرامة والطلاق فانها تكمن بالدرجة الاساسية في ازمة العلاقة مع الباربي عز جل والهروب من القيم ، وإصابة الانسانية بتصحروالروح.

فهل يعقل ان يعق شابا ابويه وهو مؤمن ومتقي ؟ وهل يعقل ان يلجأ الاب الذي يغشى ربه حقاً الى ظلم اولاده وزوجته ؟ أو ان تقوم الزوجة الصالحة المؤمنة بهتك حرمة زوجها ؟ والله تعالى يعبر عن آثار الصلاة ودورها في مكافحة الظلم والانحرافات الاخلاقية بقوله

(أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) سورة العنكبوت 45

نعم اذا انفلقت الروح سرعان ماتصبح الاسرة عرجاء متعثرة في مسيرتها ، ولقد شاهدنا الكثير من العوائل كيف انعدمت فيها العلاقات الطيبة، وحل محلها العلاقات المصلحية والانانية والمادية البحتة .
والعولمة اليوم ساهمت هي الاخرى في تكريس التفكك الأسري ، واضعاف الجانب الروحي من منظومة العلاقات الاسرية ، وبالتالي جعلت الاسرة هزيلة لاتقوى على الثبات والصمود امام المغريات وثقافة التجميل والدعوة الى الاستحمار والتغابي.

ثالثا : الانفلات الاداري ..

لاريب ان هدف العبادات والقيم هي صناعة انسان متكامل روحيا وفكريا وكل ارتباط روحي لايتبعه تزكية للنفس وتهذيبها فانه يعد ارتباطا ناقصا كما وان أي تمسك بقيم السماء ومبادئها لاتنتهي الى ترشيد السلوك الانساني وتحريره من ربق الافكار والثقافات الضالة لايعد تمسكا وارتباطا سليما وحقيقيا .

المشاكل التي تواجه المجتمع ليست بسبب انهيار القيم وهروبها امام المد العولمي كما يدعي البعض ، بل في طريقة التعبد والتمسك بتلك القيم ، فلو اتبعت الانسانية وناقذت لتلك القيم لتحولت الارض الى جنة من جنان الله ...

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) 96 الاعراف

هناك من الناس من يدعي الارتباط القيمي ولكنه يتبع بعض مايتناغم ورغباته ومصالحه ، ويحاول البعض الاخر ان يسخر الدين عبر تسييسه لتحقيق غايات ومصالح ذاتية كأن تكون تجارية او سلطوية او اشياء اخرى .. وهناك من يحاول جر الدين خلفه ليكون هو القائد والدين المتبوع الذي لاقرار حقيقي له .

وهناك من يحمل القيم والمبادئ من دون ان يتكلف عناء التفاعل الايجابي معها ، والتمسك بها كحمال يحمل اثقالا بالاجرة ، كما ورد في القران الكريم

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بايات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) سورة الجمعة آية 5

من هنا فان مصداقية الايمان والاعتقاد الصحيح تكمن في تبوء المثل والقيم والمبادئ الاصيلية موقع القيادة والتوجيه في الذات على بصيرة وقناعة وتحد لكل الضغوطات والتيارات التي تسير بالاتجاه المضاد لقيم السماء .

واحدى اهم المحطات الحياتية التي يتعرض لها الانسان الى اختبار في تمسكه القيمي هي محك ادارة الاسرة وقيادتها على هدي القيم والمبادئ ، فمهما كان تمسك الانسان وقناعته بقيم الحق والانصاف والعدالة والكرامة تبقى رهينة الخيال اذا لم تترجم الى سلوك وتوجيه لارادة

منصفة وعادلة لاسرته ، وقد راينا الكثير من الاباء تورطوا بعد زواجهم وتحولوا الى مدراء يعملون على الضد من توجهاتهم التي سلفت ، واصبحوا اسرى زوجاتهم في الدعوة الى التبرج والميوعة او الى التخلي عن مسؤولية تربية الاولاد ورعايتهم ، او الى ابوين تابعين لتوجهات بعض الابناء الذين تخرجوا من مدارس فكرية منحرفة ، وتمردوا على القيم والعادات الاجتماعية الاصلية ، فكم من اب فاضل لايمارس صلاحياته كأب ، وكم من ام طيبة لاتأمر ولاتنهي في بيتها ، وكم من ابوين يشعران بالغربة في بيوتهم بسبب تخليهم عن الادارة الصحيحة ، وبالتالي استجابتهم لسطوة الابناء الذين يوجهون الاسرة الى مالا يحمد عقباه ، وذلك عندما تخلت الام عن رسالة التربية وفق منهج القيم والثوابت ، وادعت تربية الابناء لرياض الاطفال ، واغلقت المطبخ لتفتح الباب امام العم دونالد ، فيما اطلق الاب الحرية بلا حدود لاولاده في ظل الاجواء الاجتماعية المنحرفة ، متخليا عن مسؤوليته الادارية كرب العائلة الى ادارة وتوجيه من قبل جهاز الحاسوب والموبايل .

واكتمل الخراب والدمار عندما تخلى الابوان عن دورهما التوجيهي والترشيدي للأسرة في ضوء منظومة القيم السماوية ، فامست الادارة الاسرية ضعيفة لاتقوى على مقاومة الاجواء الفاسدة الجديدة ، وهزيلة لاتملك سلطة القرار .

فما فائدة القيم والمبادئ والمفاهيم اذا لم تتحول الى دستور في بيوتنا ؟ ومافائدة دستور قيم في ظل غياب ادارة الابوين المتقاعدين عن تحمل المسؤولية ؟ وماحال بيت تحول الى فندق وابناؤه الى نزلاء ؟

رابعا : الانفلات الاجتماعي ..

باعتبار ان الانسان خلية عضوية من نسيج اجتماعي واحد فان له ارتباطا حياتيا وعضويا بذلك النسيج ، واي هجوم يتعرض له ذلك النسيج فانه وبكل تأكيد تعم هذه الخلية بمقدار المناعة التي تحملها ، واي خير يصيب هذه الخلية يتصدر اتوماتيكيا الى بقية خلايا ذلك النسيج الاجتماعي ، فاذا تشبعت الاسرة بالقيم والمبادئ السامية فانها لاتعيش السعادة وحدها ، بل تشع بجزء منها الى المحيط الاجتماعي الذي تعيش في ظله ، واذا ساد الايمان والعمل الصالح المحيط الاجتماعي فان الرياح تحرك نسائم الايمان لتتنزل بالبركة والعطاء على الاسر والبيوتات التي تستظل بها .

هذه العلاقة العضوية بقدر ماتكون ضارة بانهايار احد طرفيها كما نجد ذلك اليوم في ظاهرة التفكك الاسري بمجتمعاتنا ، او بفساد الاجواء الاجتماعية وشيوع ظواهر الانحطاط الاخلاقي ، فانها نافعة بدرجة اكبر سيما اذا عم الصلاح في احد طرفي المعادلة .

مهما كانت الاجواء الاجتماعية فان قرار انعزال الانسان عن المجتمع يعد ابادة وموتا له كالمسكة التي لاتعيش الا في الماء ، وبالعكس فانه كلما ازدادت علاقة الانسان بالمجتمع تكامل بنيانه الثقافي وعظم شأنه ، وتنامت مواهبه ، وكلما ابتعدت كانت ضحية الكابة والامراض النفسية والتفكك الاسري .

من مشاكل العصر المهولة هي استيلاء المدنية على وقت الانسان وادخاله في متاهات غير ضرورية ، واشغاله في مصارع الهموم ، وتجريده من الحس الجمعي او الشعور الاجتماعي ، وانفكاكه عن حماية الاسرة والمجتمع ، وبالتالي تحويله من كائن اجتماعي الى خلية مفردة منغلقة على نفسها تذرهما الرياح .

إذا أخرجت الأم من بيتها ، وحشرت في وظائف الدولة فإن ذلك بلا شك سيكون على حساب تربية الأبناء ، وتهيئة الأجواء المنزلية ، وأن تكون ظهيرا وفيها للرجل من موقعها الذي تبوأته من قبل الباري عز وجل ولعل أخطر مافعلته العولمة هي أنها اختطفت الأسرة من المحيط الاجتماعي ، وأودعتها في دوامة الانشغالات الوهمية التي يعبر عنها ب (stress) بدعوى ضرورة رفاهية المعيشة ، فمأذا حصدت الإنسانية من هذه الدوامة غير زيادة الفقر والفقراء وازمات السكن والبطالة ، وبدلا من بلوغ الاستقرار المعيشي ازدادت حدة التوترات والمشاكل الأسرية والاجتماعية . وبدلا من الوصول الى التكامل الجسدي والصحي كما يدعي دعاة العولمة ابتلي الناس بموت الفجأة وأمراض ضغط الدم والسكري وانفلونزا الطيور والخنازير . نحن لسنا هنا بصدد محاكمة العولمة واثارها ، بل ما يهمنا هي مسألة الانفلات الاجتماعي التي باتت إحدى سمات العصر ، وذلك بسبب انكفاء الإنسان المعاصر على نفسه ، ووقوعه في فخ الكبت والأمراض النفسية والطلاق والانتحار ، ففي بلد مثل سويسرا الذي يحظى بمركز متقدم على صعيد المستوى المعيشي هناك رقم يزيد عن 1600 شخص يلجأون الى الانتحار سنويا ، أي بمعدل اربع حالات يوميا . وفي السعودية طالبت الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان بانقاذ نحو 900 طفل في المملكة تتراوح اعمارهم بين 7 - 18 سنة من قضايا المخدرات.

بعد تبيان الجذور الأساسية للتفكك الأسري وعوامل نشأته ، تبرز الى السطح مجموعة اشكاليات تفرض نفسها على بساط البحث والتحليل ، ومن هذه الاشكاليات على سبيل الإشارة لالاحصر .

اشكالية رقم احد

في مجتمعاتنا عوائل لاتقيم وزنا للمنظومة القيمية ، ولا لضرورة الارتباط الروحي ، قد عانت من مشكلة التفكك الأسري ، كيف يمكن لها ان تستوعب اهمية الايمان بالله وبالدين في التماسك الأسري من دون ان تؤمن بها ؟

جوابا على هذه الاشكالية نقول ان فصل القيم والمبادئ عن التربية والتوجيه الأسري في نظرنا هي من الاسباب الرئيسية لانهايار صرح الأسرة سواء امنت او لم تؤمن .

- كيف يمكن لرب الأسرة ان يربي ابناءه على الاخلاص للابوين اذا كان هو يسعى للخيانة الزوجية ؟

- وكيف تحصن الام ابناءها من خطر الانحراف الى مهاوي الفساد الخلقي عبر اجهزة الحاسوب والموبايل والجات من دون الحصانة الايمانية التي تنتزل الى الانسان عبر اداء الفرائض والمناسك ؟
 - ماهي البدائل المطروحة لبناء اسرة متماسكة في ظل ادارة ابوية حكيمة ، و ابناء يتنافسون من اجل نيل العلم والمعارف من دون الارتباط بالله تعالى واهب الحياة والحرية والسعادة للانسان ؟
 - كيف يمكن للأسرة ان تصمد امام الموجة المادية العائنية التي تسمى بالعولمة من دون العودة الى القيم والتمسك بحبل الله تعالى عبر قراءة القران واقامة الصلاة وبقيّة الفرائض الايمانية ؟
- وكما ان الطبيب يصف دواء مرا للمريض من دون ان يكون للاخير قناعة او رغبة بذلك الدواء ، فان الايمان دواء للانهيال الاسري بغض النظر عن ايمان تلك الاسرة بذلك الدواء أو بعدمه ، ولا بد ان ياتي يوم على ذلك الانسان الذي شغلته توافه الدنيا واسقطته مصاعب الحياة من اجل ان ينقذ نفسه ويسمو بالروح والايمان بالله تعالى.
- نحن هنا نحلل اسباب التفكك الاسري وجذوره ، ونبحث عن علاجات لها بغض النظر عن ايمان المتورطين او عدمه ، فالرسول ص جاء برسالة الاسلام من اجل هداية الناس وارشادهم ، فمن امن له عاقبة ايمانه بسعادة الدنيا وحريتها وكرامتها ، ومن لم يؤمن فعليه كفره بشقائه في الدنيا وخزيه في الآخرة .

وعندما نؤكد على أهمية الارتباط بالله تعالى فأنا نؤسس لواقع أسري جديد قائم على الالفة والمحبة والاخلاص ولانقصد فرض فكرة الايمان بالله تعالى لان الفرض والاكراه يتنافيان مع الدين، والايمان وليد حرية الفكر وفكرة الحرية اصلا ، والفرض والاكراه يتناقضان مع الفكر والحرية معا.

اشكالية رقم 2

بالعلم والتقنية والتخلي عن الايمان بالله والقيم الاخلاقية والمناقب السامية بلغت المجتمعات الغربية اعلى مستويات الرفاهية والتطور، فكيف ندعي ان العولمة من عوامل التفكك الاسري الحاصل في المجتمعات الانسانية ؟

لاريب ان العلم طريق للتقدم والرفاهية ، وكل الامم التي سارت في هذا الطريق بلغت قمم المجد والمدنية والحضارة ، وقد حكى لنا التاريخ عن امم حققت نجاحات مدنية بالغة وحضارات عظيمة ... فتلك حضارة الفراعنة ومن قبلها اليونانية والفارسية ، وماحضارة بلاد الروم ببعيدة .

ولكن ما سر اندثار تلك الحضارات التي وصلت مشارف القمم لتنتهار بعد حين ، ماذا بقي من حضارة آل فرعون وفارس والرومان غير بقايا اثار واطلال ؟

يقول البروفسور الانكليزي ارنولد توينبي Arnold Joseph Toynbee في كتابه الشهير دراسة للتاريخ A Study of History بأن الحضارات الانسانية السابقة سقطت لثلاثة

أسباب احدها ضعف القوة الخلاقية في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية بالاضافة الى التفكك وضياع الوحدة في كيان المجتمع .

ولاشك أن انهيار تلك الحضارات كانت بسبب نشاتها على اساس العلم من دون ضوابط أخلاقية ، وعلى اساس البطش والظلم والقوة من دون الاتكاء على قوة الحق والايمان بالله تعالى .

فاذا لم يفترن عالم الفيزياء علمه بالاخلاق الانسانية لم يرعوي عن انتاج اسلحة الدمار الشامل التي يمكن ان تفتك بالبشرية ، واذا لم يتصف عالم الكيمياء بالنبل والمبادئ الانسانية ، تراه يتسابق لانتاج الاسلحة الذرية التي فتكت باليابانيين في هيروشيما وناكازاكي . واذا لم يفترن السياسي سياسته بالادب والمثل السامية تحول الى ديكتاتور متسلط يقتات على دماء الشعوب واموالها ، واذا لم يفترن عالم الدين علمه بالتقوى والرحمة دعا الى تسييس الدين عبر فتاوى تدعوا الى القتل والسفك واستحلال اموال الناس كما نراه اليوم في منطقتنا . الحضارة الانسانية الاصيلة هي تلك التي تنشأ لتبقى شاهدة ، لا ان تخر وتسقط بعد حين ، ولو قدر لتلك الحضارات ان تعتمد على ثنائية العلم والايمان لبقيت حية معطاءة الى يومنا هذا اليوم وبالرغم من نجاح الغرب في المجالات العلمية والتقنية ، لكنه يعاني من حالة الشيخوخة والانهيار الجسدي بسبب ماخيبي للمستقبل من براكين عارمة تقذف بحمها بين الحين والاخر تمهيدا للاعلان عن انفجار خطير بعد حين (ولتعلمن نبأه بعد حين) .

نحن لسنا بصدد الحط من تأثير الازمات لدينا والتهويل من ازمات الاخرين ، فالذين يتحدثون عن الرقي والتقدم الحاصل في الغرب لايشيرون من قريب او بعيد الى ظاهرة تزايد نسب الانتحار في المجتمعات المتقدمة علميا وتقنيا وتتمتع برفاهية عالية بما فيها المجتمع السويدي الذي يقدم اعلى مستوى في العالم من حيث الضمان الاجتماعي ، ناهيك عن حالات الطلاق والتفكك الاسري الرهيب ، ومشكلة تعاطي المخدرات ، والادمان على الكحول . نعم ان ماتنعم به دول الغرب من تقدم وازدهار مدني يعود الفضل فيه الى تمسك هذه الدول باهمية التطور العلمي ، حتى ولو جاء هذا التطور على حساب الجانب الانساني والاخلاقي ، فالعلم في الغرب هو التطور والتقدم الاعمى وليس من المهم باي اتجاه ولاي هدف وعلى حساب من.

السؤال المطروح في العلم الغربي هو كيف فقط ، كيف الوصول للقمر وكيف صنع القنبلة النووية ، اما السؤال لماذا فهو غير مطروح ، لانه من شأنه اعطاء غائية اخلاقية وانسانية للتطور العلمي ، وهذا مايرفضه الغرب لانه يرى الاخلاق تقييدا للعلم في تقدمه المضطرد ، ومن هنا تتبع اسباب الانهيارات الاجتماعية والنفسية التي يعيشها الغرب وتتفجر بعضها بشكل مفاجئ وخطير احيانا ، وذلك كتحصيل حاصل لتخلي الغرب عن شريعة السماء ، وابتعادها عن المثل والقيم الدينية التي توفرها حالة الايمان بالله سبحانه وتعالى . مشكلة البشرية مع العولمة ليست مع العلم ، بل في طلاقها البائن للقيم والمبادئ السماوية ، والدعوة الى علم بلا دين ، وتقدم بلا اخلاق ، ومال من دون ضمير ، وناطحات سحب على حساب المشردين والفقراء في الارض ، وبالتالي فلا استقرار للعالم ولاامن لها طالما تبتعد عن الايمان والاخلاق عدة سنين .

(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان).

اشكالية رقم 3

لقد حكم خلفاء وملوك المسلمين اكثر من اربعة عشر قرنا ولم تجن المجتمعات المسلمة غير الامية والفقر والتخلف الحضاري ، فكيف ندعو مجددا الى تحكيم القيم والروح في تركيب الاسرة والمجتمع من اجل تحقيق التماسك والرفاه الاجتماعي ؟

إن الخلفاء الذين تسلقوا عرش الخلافة في بلاد المسلمين انما اتخذوا من الدين شعارا لتسويق مصالحهم القبلية والحزبية ، وتثبيت سطوتهم بعيدا عن الشريعة الحقة ومبادئها ، بل استغلوا الغطاء الاسلامي لتمرير اهدافهم ومصالحهم الشوفينية على الضد من ثوابت الرسالة ودستورها ، وحولوا بذلك الولاية الالهية الى ولاية حزبية سياسية ملكية يتوارثها الابناء عن الاباء .

عندما نتحدث عن العدل والمساواة فان ذلك يرتطم بالصور البشعة لظلم ال امية وبني العباس وبني عثمان واتباعهم لنحر الرقاب ، وسبي النساء وقتل الاطفال ، والاعتداء الجنسي على الاعراض ، ودفن المعارضين احياء في جدران قصورهم التي شيدت على جماجم المعارضين الاحرار .

وكذلك عندما نتحدث عن الايمان بالله تعالى فاننا نصطدم بكفر وفسق هؤلاء الخلفاء وفسادهم وانحطاطهم الاخلاقي وبخرقهم ونزقهم ، فقد حكى لنا التاريخ عن خليفة المسلمين يزيد ابن معاوية الذي أرسل جيشا " كبيرا " بقيادة مسلم بن عقبة اجتاح به المدينة وأباحها لجنوده ثلاثة أيام، قاموا خلالها بارتكاب أفظع الجرائم ، فقتلوا ما يزيد عن خمسة آلاف من الناس ، ونهبوا الأموال ، وأحرقوا البيوت ، واعتدوا على الاعراض ، حتى قيل إنهم فتكوا بحرمة أكثر من ألف عذراء البداية والنهاية لابن كثير ، ج 8 ص 265 .

وذاك هارون العباسي الذي وصف حكمه بالعصر الذهبي حيث يذكر المؤرخون إنه يوم مات و جدوا في قصره أكثر من 2000 جارية من أجمل الجميلات 1000 حين عاد موسى بن نصير فاتح المغرب إلى دمشق كان معه 30000 جارية أهدى عدد منهن إلى الوليد بن عبد الملك .

رغم البون الشاسع بين حقيقة الاسلام وزيف تلك الحكومات ، ورغم انها لم تعمل بالاسلام الا باسمه وشكله ومظهره الخارجي كزخارف لتجميل واجهات الحكم ، فقد حدثت تحولات عظيمة في الحضارة الانسانية ، محدثة حركة علمية قل نظيرها استطاعت ان تشع بنورها لتملأ العصور التي كانت تغرق في الظلام ، ولاتزال جامعات اليوم ومكتباتها تدين الى تلك الاكتشاف والنظريات العلمية ، فكيف بها لو انها طبقت الاسلام بقيمه ومبادئه الانسانية ؟ تتطلع البشرية وبشغف للعودة الى قيم العدالة والرحمة والكفاف ولاتفتش الاسرة في ايماننا هذه الا عن تلك المبادئ والقيم التي تتطلع اليها بشغف بعد فراق طويل .

اشكالية رقم 4

الفقر معول يفتت من عضد الاسرة ويسبب في انهيارها، فما هو سر الانهيارات الاسرية عند الاغنياء ؟

الفقر والغنى عوارض تعترى طريق الانسان مسببة له نقص في الاموال والثمرات ، او زيادة فيها ، وبالرغم من تاثير المال على مجرى الحياة ، الا انه ليس السبب في التفكك او التلاحم الاسري .

لا الفقر قادر على تفتيت عضد الاسرة اذا كان ابناؤها ورعاتها متلاحمين ، ولا الغنى يدفع التفكك والانهيار عن الاسرة المفتتة اذا لم يتوفر لديها ارادة التلاحم وقوة التراحم ، فكم من اسر تعيش الفقر والفاقة ولكنها تضرب اروح الصور في التكامل الاسري ، وكم من عوائل تعيش على خزائن المال والذهب تنخر في عظامها الفرقة والشقاق والتنازع والطلاق .

يرى **دانيال كاهنمان Daniel Hahnemann** ، أستاذ الاقتصاد في جامعة برنستون ، الحاصل على جائزة نوبل، وعدد من زملائه أن مسألة تسبب الحصول على كمية كبيرة من المال في حدوث حالة من المزاج الجيد، تعتبر من "الأمر الخيالية". من هنا نستكشف ان المال لايصنع التراحم الاسري ، ولايساهم في تفككها ، لانه عرض مكتسب ، بل ان المشكلة ليست بالمال بقدر في من يمتلك المال . اذا استطاع الغني ان يحول المال من سلطة قائدة الى وسيلة ، تحول ذلك المال الى وسيلة لرفاهية الاسرة وعمارتها ، ولكن اذا امتلكه المال وصار له عبدا اسيرا لتحول المال الى اداة للافساد والفساد ومعولا للجريمة وسببا للطلاق .

كذا اذا احتفى الفقير بقيم الصبر والقناعة والايمان لما استطاع ذلك الفقر ان يهزمه او يفشل تجربته الاجتماعية ، وبالعكس ان هرب الفقير من القيم واستسلم لضغوطات الحياة من فقرها وفاقتها وقع فريسة التفكك والانهيار اسري .

يقول العالم الايرلندي الشهير **برنارد شو George Bernard Shaw** : ((لا أستطيع القول بأنني ذقت الفقر حقاً ، فقبل أن أستطيع كسب شيء بقلمي كنت أملك مكتبة عظيمة هي المكتبة العامة في المتحف البريطاني ، وكان لديّ أكمل معرض للوحات الفنية قرب ميدان ترافالجار .. وماذا كنت أستطيع أن أعمل بالمال ؟ .. أدخلن السيجار ؟ إنني لا أدخلن ، أشرب الشمبانيا ؟ إنني لا أشرب ، أشترى ثلاثين بذلة من آخر طراز ؟ إذن لأسرع بدعوتي للعشاء في قصورهم ، أولئك الذين أتحاشى رؤيتهم قدر ما أستطيع ، أشترى خيلاً ؟ إنها خطرة ... سيارات ؟ إنها تضايقتي ... ، والآن ولديّ من المال ما أستطيع أن أشترى به هذه الأشياء كلها فإنني لا أشترى إلا ما كنت أشتريه أيام كنت فقيراً ، وإن سعادتني هي في الأشياء التي كانت تسعدني وأنا فقير : كتاب أقرؤه ، ولوحة أتمعن فيها ، وفكرة أكتبها ، من ناحية أخرى فإن لدي خيالاً خصباً ، لا أذكر أنني احتجت شيئاً أكثر من أن أستلقي وأغلق عينيّ لأتصور نفسي كما أحب ، وأفعل في الخيال ما أريد ، وإذن ففيم كان ينفعني الترف التعيس الذي يزخر به شارع بوند ؟

الايان بالله يحصن الاسرة من مخاطر التفكك والانهيار ، فلماذا لايندفع الايمان لحماية الاسرة الملتزمة ان ابتليت بالمشاكل الاسرية ؟

لا ريب ان الايمان بالله تعالى وسننه اصل ثابت في هيكلية البناء الانساني ، لكن هذا الاصل لايدوم ولاياتي اكله ان لم يورث حامله الروح والطاقة الايجابية والاخلاق الرسالية. فالايان الذي لاينتج روحا وراحة وعزة وسعادة يعد ايمانا هزيلا لايشكل اثرا مهما في تركيبة الانسان وشخصيته .

يقول الباري تعالى في تثبيت هدف العبادات بقوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة: 21 , ويقول الرسول الاكرم ص لاصلاة لمن لانهي صلته عن الفحشاء والمنكر.

فالحصانة الذاتية التي تتأتى من العبادات هي النتيجة الجوهرية التي تمنح الانسان قوة للوقوف امام السلوكيات المنحرفة ، والثقافات الجاهلية والعادات السيئة ، وهي التي تحصن الانسان والاسرة من الانجرار الى ارتكاب الخطايا صغرياتها او كبرياتها ، وهي التي تشكل الرادار الحساس لكشف المشاكل الموقوتة قبل انفجارها في طريق التعامل بين الزوجين .

ويخلق حالة اندار من أي سلوك يؤثر في العلاقة الزوجية من لغو الكلام ، او شراك خبر وهمي من خارج اسوار البيت يتلى على الزوج او الزوجة ، او حساسية مفرطة وغيرها . ومن المعالم المهمة للروح التي تتأتى من الايمان بالله هي ملكة الحكمة التي تعني إحالة قرارات الانسان للتحليل والتشريح قبل اتخاذها ، كقرار الاختيار السليم لشريك المستقبل ، فمن دون الاختيار السليم على اساس التكافؤ الثقافي والعقائدي والاجتماعي فان رياح التفكك سرعان ماتعصف بتلك الشراكة لتهداها على قواعدها .

من هذا المنطلق يدعو الدين الى الاختيار القائم على اساس المساحات المشتركة لا الضيقة كالحسب والجاه والجمال الظاهري ، فان كان الاختيار موفقا دخل الايمان حاميا لتلك الاسرة ومحصنا لها ، والا فان الحياة الاسرية لاتستقيم اذا تزوج رجل كأبي نر في ايمانه وتقواه من امراة كهند بنت عتبة !

تلحم جملة من العوارض المهمة التي تنبثق من حالة الايمان ، فان وقعت الاسرة في فخ نصب لها فان الايمان يخفف من خطورة الامر ويذكر الزوجين بالاطر الاخلاقية والايمانية التي سرعان ماتلقي بظلالها على الزوجين بنسائم الرحمة والمودة والسكينة ، وان رأينا يوما اسرة متماسكة ومتألقة لاتوالي بدين ولا توأم بمعتقد كثير من المجتمعات الغربية فان ذلك الاستقرار نابع من صميم الايمان الفطري بالله تعالى ، وذلك هو الايمان حتى وان لم يعلن ، وكذا اذا راينا السلوك المعوج في الاسرة من كذب او نفاق او ظلم وعدوان فذلك هو الكفر بعينه حتى وان ادعت اسلامها .

تاسيسا على ماسبق يتبين ان التفكك الاسري هو نتيجة طبيعية لمجموعة من التراكمات الجزئية البسيطة والكلية المعقدة تتفجر بصور مختلفة تبعا للبيئة الاجتماعية وتأثيراتها ، وتبعا لعمق الايمان العقيدي للاسرة .

والتفكك ذاته يشكل اسبابا لظواهر مرضية اجتماعية واقتصادية اخرى تتجاوز حجم التفكك لتبلغ امواجه المجتمع كله ، وسوف يتبين لنا بوضوح من الفصول القادمة من البحث ان كل سلوك يصدر من الانسان لايقف أثره ونتائجه عند حدود الاسرة ، بل ينتقل ليؤثر على الدائرة الاجتماعية كلها .

نفهم من ذلك حقيقة خطيرة غفل عنها الكثير من المهتمين بالبحوث الاجتماعية ، مفادها ان أي حدث سلبي او ايجابي ينطلق من فاعله على شكل حلقات متداخلة ثم تعود من جديد بعد

دورة كاملة في حدود المجتمع لتصيب صاحبها بنفس الصفة وبقوة مضاعفة ، والاية الكريمة تقول : (ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) سورة الزلزلة (كل نفس بما كسبت رهينة) 38 سورة المدثر

(وان ليس للانسان الا ماسعى ، وان سعيه سوف يرى) . النجم 39

من منا لا يعرف القانون الثالث للحركة للعالم نيوتن Isaac Newton :

لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه

ويتضح مما سبق ان مانمثله من شكل ومحتوى وشخصية انما هو نتاج لكل ماشريناه واكناه في ايام حياتنا، وماقرانه وسمعناه وتعلمناه ، ودعواناه وصليناه او كفرناه وعصيناه ، او بما زكينا او بخلنا واستغنيا ، قطعنا رحما او وصلناه ، وكل جزئية مستنا مهما كانت صغيرة ، فهي جميعها تساهم في صياغة ذواتنا بكل ابعادها .

(وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (49) سورة الكهف

من هذه الحقيقة نفهم ان الانسان مسؤول عما يفعله ويتصرفه ، وكل كلمة تتطوقها الام لاولادها فانها تعد بذرة تستقر في شخصية الابناء ، وكل نسمة حب او عاطفة تنطلق من الزوج تجاه زوجته فانها تتحول الى نهر من الحنان ينطلق من الزوجة لينعم به الزوج وابناء الاسرة جميعا ، كما وان أي نظرة حرام تنطلق من عين الزوج تجاه اجنبية فانها تخلق حاجزا غير مرئيا تجاه زوجته لتؤثر على مستقبل العلاقة الزوجية والاسرة برمتها ، وكل لقمة حرام تدخل في جوف الابناء فانها لا تتحول الى دم وخلايا جديدة فحسب بل الى عاطفة واخلاق وثقافة .

ملاح التفتك الأسري

للتفتك الاسري ملاح كثيرة تختلف في تفاصيلها واشكالها من اسرة الى اخرى تبعا للظروف الاجتماعية المحيطة بها او بالقواعد الايدولوجية التي رفعت عليها بنيانها وعوامل اخرى قد اشرنا اليها في الفصل السابق من هذا البحث ، ونستمر في تبيانها ضمن الفصول التالية .

من ملاح التفتك الاسري مايعد ظواهر فردية كالقسوة والعنف الاسري والطلاق .. وماهو ظواهر اجتماعية كالعنوسة والفساد الاخلاقي والميوعة والتبرج وغيرها .. نسعى بتوفيق من الله تبيان ملاحها ودراسة جذورها ونتائجها الفردية والاجتماعية .

ملاحق التفكك الاسري :

أولاً : التوتر الأسري

شاعت إرادة الله ان تعيش الاسرة في ظل ولاية القيم والمبادئ في سكون وطمأنينة وراحة بال ولا تتم هذه النعمة الا بالحوار الهادئ ونيزل الجدل العقيم ، والتخلي عن اللغو ، والتنزه عن قذف الكلمات اللاذعة والتبريرات اللامسؤولة ، وصهر الافكار لصناعة رأي رشيد وموحد من اجل تحقيق اهداف الاسرى من تربية وعماراة مستقبل .
نحن هنا لانرسم خطوطا لاسرة في الجنة ، ولانبحث عن المستحيل بل هي مشيئة اراد بها خالق الانسان ان يحيا في امن وسلام وحب ومودة .

(ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا) الروم 21

اذا راي البعض ممن يقرأ هذه السطور ان حياته الاسرية على غير هذه الشاكلة فلا يرمينها بحجر بل عليه ان يعلن قرارا شجاعا لتغيير واقعه الى الواقع المثالي المنشود ، لا البراءة والهروب بل بالقبول ان الواقع الاسري الذي يعيشه هو من ثمار مادبر وفكر ، وما رسمه وخطط له هو وشريك حياته ، وان الهروب لايعالج الاخطاء بل الوقوف عندها وتشمير ساعد الجد والمل من اجل بلوغ الحياة الاسرية المفضلة ، فمن رام وصل الشمس حاك خيوطها .
في رحلة المتأملين الى ذلك البيت الجديد نحن لاندعي بالغاء الخلافات الاسرية فانها امر تبرره الطبيعة الشخصية لكل من الزوج والزوجة ، بل العكس فان اختلاف الاراء تغني مكتبة الاسرة بخزين من الحلول والافكار من اجل اسرة متماسكة قوية فقد روي في الحديث الشريف ان اختلاف امتي رحمة .

مانخافه ونخشاه هو تحول الخلاف في الراي وتنوعه الى اختلافات في القرارات العملية ، عند ذاك تفسد الادارة ، ويختل التوجيه فتنشأ حالة البغض فيتعامل الأبوان بنوايا تبطن العداة وتخطط للكيد بالآخر .

اذا اتفقف ان الشريك الآخر يدبر ويخطط بنفس الوتيرة فانهما يزرعان معا الغاما موقوتة في طريق الحياة الاسرية المنشودة .

نحن الان امام منظر شائع في الكثير من البيوت التي عبئت بمناوشات بالالسن والكلمات ذات العيار الثقيل سواء من قبل الزوج لزوجته يلقي عليها مسؤولية مالت اليه الأسرة من قلق وارهاق ، او من قبل الزوجة تجاه زوجها تطعنه بعدم الوفاء بتحمل مسؤوليته كأب امام اطفاله في شؤونهم المدرسية او الاخلاقية .

ويشتد العراك ويتنافس الزوجان للبحث عن نقاط ضعف الآخر ليرمي بها الآخر ، حتى اذا وصلت العلاقة الزوجية الى حالة العجز والافلاس من البحث عن المزيد من النقاط ، تبدأ بلوي ذراع الرجل في نقاط ضعفه كالزعل والخروج من البيت او التوقف عن تحمل مسؤولياتها كأم وكزوجة لتعلن استنقالتها الى حين الحصول على تنازلات من الرجل قد تكون غالبا على حساب كرامته او علاقاته الاجتماعية او الرحمية مع ابويه واخوانه واخواته.

وقد يقابل الزوج بموقف لا يقل خطورة يستهدف فيها كرامة زوجته ، ليعلن عليها حربا غير انسانية كضربها أو هجر فراشها أو تجفيف منابع تمويلها المادي ، أو منعها عن زيارة اهلها . وهنا نرى انفسنا ملزمين بضرورة بحث الجذور التربوية والاخلاقية التي تسبب في فساد الراي ، وتفتيت الحالة المركزية ، وتذكية نار التوترات الاسرية ، ومن اهم تلك الجذور :

أ - فقدان اللغة المشتركة

لانقصد بها اختلاف في اللغة الكلامية ، بل هي عناصر اخرى لم تتناولها اقلام علماء المدرسة الدارونية والفرويدية ، فهي حكايات تنبعث من الروح قبل ان تنالها الكلمات ، واشارات تنطلق بصمت من القلب قبل ان تسمعها الأذن . هذه الاشارات وتلك الحكايات نجعل حروفها وكلماتها لكننا نعلم يقينا دورها النافذ عندما تنطلق بسرعة اسرع من الضوء لتستقر في القلوب ، اولتفر منها بعد حين ان لم تراع وتحاط بالاهتمام . لقد ورد في الحديث الشريف ان الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ومااتتكار منها اختلف .

الكثير من الشعوب الاوروبية تعتقد بهذه الحالة من التالف والانسجام تصفها بالتناغم النفسي (chemistry) ، ولقد اقرت الابحاث والدراسات الاكاديمية في مجال علم النفس بحقيقة تالف بعض النفوس وتنافر البعض الاخر ، لكنها أوعزتها لجملة من العوامل الوراثية كما ذهب اليه كل من باس وبلومن (Ploimn & Buss) وبالتالي تهربت عن دراسة وتحليل اسباب هذه الظاهرة المهمة التي تحدد معالم العلاقات الاسرية والاجتماعية . فمجرد خوضها في هذا البحث يبعدها عن الاسس المادية التي نشأت على اكتافها مدارس علم النفس الحديث ، مما يهدد بعضها بالانهيار، أو يربكها أمام الاعتراف اللازم بدور الروح الانسانية في صياغة الموجات التفاعلية التي تدور بين الاخلاء أو الاعداء لتخلق حالة الالفة أو التنافر .

لكن الخوض في هذه الدراسة يبعدها عن استراتيجية بحثنا عن اصول اللغة المشتركة بين الزوجين ، وقد نتوقف انشاء الله لاعداد دراسة منفصلة تبحث في اعماق النفس البشرية ، محددة خطوط الالتقاء والتنافر فيها .

مايهمنا هنا هو التعرف على اهم العوامل التي تشحن عرى العلاقة بين الزوجين او تدعو الى تنافرها ، تلك التي تبعث بالحياة اوتبيدها .

فهل الامر يكمن في عامل الزواج من اقارب ، ام في تقارب سني العمر بين الزوجين ، ام هو في التجاذب الجمالي والخلقي ، ام في اتفاق اللغة الواحدة ، ام في الالتقاء على العقيدة الواحدة والمذهب الواحد ؟

قد تكون تلكم العوامل اساسية ومهمة في تشكيل اللغة المشتركة بين الزوجين ، ولكن عامل (النوايا والمقاصد) أو بتعبير بسيط النية **faithful** , هي التي تعتبر الماكنة التي توجه الانسان وتحرك المشاعر ، وتطلق اللسان للكلام ، وتبعث من النفس العطف والحنان والحب والاحترام ، او تسوق المكر والاحابيل واغتنام الفرص من اجل الاستحواذ على مساحات اكبر من شخصية الزوج من قبل الزوجة او العكس ، او تفويضا لسلطة المقابل وتركيعه .

النشأة الاولى ..

النوايا والمقاصد هي التي تصنع الاتجاه العام للشخصية ، فاما حملا وديعا او ثعلبا ماكرا ، وهي تنشأ وتتبلور من شئ من الثقافة والتربية وكثير من الروح تتشكل في فترة انعقاد النطفة ، تلك الخلية التي تمثل كثيرا من خصوصيات الام والاب ، ثم فترة الحمل التي تعتبر مرحلة الاعداد الروحي والايماي ، ومرورا بمرحلة الطفولة حيث فترة الاعداد القيمي والتربوي . الانسان في حقيقته طفل كبير يأخذ كل شئ من أمه ابتداء من عاطفتها وروحها ونواياها ، ومن قلبها الملى بالحب والحنان ، او الحقد والاضغان ، فتنشأ اللبنة الاولى للنوايا والمقاصد . هذه المعادلة من شأنه ان تقلب الكثير من المقاييس في اختيار شريك المستقبل رأسا على عقب فاذا احسن الزوج اختياره لزوجته على اساس الاتفاق الضمني على النوايا والمقاصد وان لم يكن بالامر الهين ، فان بيتا سعيدا يكون من نصيبهما ينعم فيه الجميع بالدفء والحنان والرأفة والكرامة .

فلايصمد الالتقاء اللغوي امام النوايا التي تتطلق من ذئب يرتدي لباس رجل ، اولبوة تقمصت بقميص امرأة ، فنحن لم نر يوما تعاشر الافةى مع الطير ، اوتحابب الذئب مع الشاة ، او امرأة صالحة وطيبة مع رجل ماكر وخبيث .

ولايعني الاتفاق العقيدي بين الزوجين ان لم تكن النوايا والمقاصد حميدة قائمة على صدق النية وعلى اساس **حب لآخيك ماتحب لنفسك** ، ولاينفع القربى بين الازواج اذا لم يتشفعا بنوايا خالية من الماديات والمصالح الضيقة .

تاسيسا على ماسبق فان قاعدة اللغة المشتركة هي روحية بالدرجة الاولى ، فتعامل الرجل مع زوجته وبالعكس , يعتمد اولا على النوايا والمقاصد التي تتطلق من القلب تحمل معها حزمة من الاخلاقيات والثقافات والقيم مبلة بماء الحب والود والرحمة ...

ففي يوم من الايام سأل زوج زوجته هل تحبينني ؟
فقالت سل قلبك يجبك .

• متى تتكشف الحقائق وتظهر على السطح جلية ؟

ليس ذلك بالسهل اليسير ، خاصة وان الانسان لديه قدرة هائلة على اخفاء الملايين من الملفات السرية حتى عن اقرب الاخلاء لديه ولفترة طويلة من الزمن .
قد تطفح بعض الاسرار على السطح في حالات التدافع والصراع اللااختيارية في دروب الحياة المختلفة ، ولولا هذا التدافع لتقوضت المجتمعات البشرية ، ولفسدت عرى الحياة ، اذ قال الله في محكم كتابه الكريم :

(لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) البقرة: 251 .

عندها تتفجر على شكل براكين من اللؤم والشؤم والحسد تحرق ماحولها وتحول الاسرة الى جحيم ، او تتفجر انهارا من الحب ، واغصانا من الشهامة والحب والعطاء ، وكل اناء بما فيه ينضح .

من المؤسف حقا ان الناس تتخدع بالمظاهر التي تظلي ظاهر الفتى الذي يقدم على الزواج ، او تلك الفتاة التي يطرق بابها ، فكم من فتى كانت عليه سيماء الصالحين ، ويندى جبينه بالحب والشهامة ، ويشم منه رائحة الرجولة والكرم ، ومنتصور صلاح دينه وكمال اخلاقه ، ثم سرعان ماتكشف الايام عن صورة اخرى لا تشبه ما رأينا من قريب ولا من بعيد ، و وكأنه دخل في فروة ذئب مفترس او جلدة خروف جبان !

وكم من مرة طرقتنا باب فتاة يغمرها الحياء والخجل ، وتقوح منها دفء الايمان والسلام ، والتربية الصالحة ، والاخلاق الرفيعة ، ثم سرعان ما يتم الزواج وتنتقل الى بيتها الجديد لتميط اللثام عن افعى ملمسها كالحرير عندما تشعر بالضعف ، وتبث السموم عندما تتفرعن وتستقوى !
في حين من المفترض ان تكون الخطوبة فترة اختبار وتمحيص للنوايا وبواطن الشخصية ، الا انها غالبا ماتتجه اتجاها بعيدا عن الواقع ، لقلّة خبرة الطرفين في التشخيص ، ولانغمارهم في الوهم والخيال ، حيث يسمو كل منهما على ثغراته الشخصية ، ويتستر على العيوب ، فتسمو الروح على الجسد ، لتخلق في نسيج الخيال ، فيرسم الفتى بريشة المبدع اجمل قصر لحبيبتة ، وترسم الفتاة جناحين تحوم بهما في سماء القصر ، فليس في كلامهما شئ من كلام البشر ، ولا في اخلاقهما كاخلاق البشر ، وهكذا الى ان تطأ اقدامهما البيت الجديد فيطفقان من ورق الخيال لتتكشف سؤتهما حيارى ، وبيان كل مستور وينكشف كل خفي .

ليس من الاجدر وبدلا من المكاشفة واستعراض الملفات الشخصية ، وعلاجها بمنطق الحوار .. وحوار المنطق ان يجعل كل طرف اصابعه على اعين الاخر ليستر مابدى له ، فتبقى تلك الدوائر كدامل على سطح المعاشرة الزوجية تتفجر قيحا ودما ، كلما تعرض لضغط خارجي او احتكاك سلبي فتبقى تلك الجراحات داخل مكامن الشخصية لا تكشف عنها ولا تعالج !

بسبب اختلاف الظاهر مع الباطن فان مثل هذه الشخصية تكاد تكون غير متزنة ، فكلما اثيرت جراحاته الداخلية يطلق العنان للسباب والشتم ، او الضرب والامتهان الجسدي ، او تعزل التربية وتعلن استقالتها عن الحياة الاسرية ، فينقلب جو الاسرة الى جحيم بعد ان كان يسوده هدوء نسبيا، الى حين وقت معلوم .

ب - ازمة الحوار والتفاهم

ليس مطلوباً ان نرمي المشكلات الاسرية بالرصاص ، ولا ان نستقبلها بأغصان الزيتون ، فحياة أسرية بلا مشاكل لاوجود لها الا في الجنة عند ملك مقتدر ، فالدنيا دار مكابدة و غض نظر .

مهما اتسقت النوايا ، وتشابهت الثقافات ، وتعانقت النفوس قبل الابدان ، فانه لامفر من تسلسل المشاكل الأسرية الى الاسرة ، ومنذ اللحظات الأولى من تشكيل الاسرة ، ودخول الزوجين العش الذهبي .

الفارق ان تلك اللحظات تغمرها انهاراً من الحب والمودة و غض النظر ، من منطلق فألف عين من اجل عين الحبيب تكرم .

لاشك باستطاعة الزوجين تمديد واطالة الايام السعيدة ومنحها اقامة دائمة اذا أوتي الشريكان النضج والحكمة والحوار والتفاهم .

سيكولوجية الحوار

قد تبدأ المشاكل الأسرية من ظن يدور في مخيلة الزوجة ، او شك يحط رحاله حول الزوج تجاه زوجته ، ومن ثم ينمو ذلك الظن وهذا الشك ليحفر اثراً في نفس صاحبه ليطفح على السطح بشكوى او عتاب وسلوك يחדش من صفو الحياة الزوجية لتسدل الستار عن اخر ايام العسل !

او تبدأ بمحاولة الزوج تهميش زوجته ، وحشرها في زاوية الخدمة المنزلية والاستهلاك الشخصي ، او عبر التقليل من اهمية الصفات الشخصية للزوج من قبل الزوجة ، او تنشأ من التصور التاريخي لكثير من الرجال في مجتمعاتنا القائمة على اساس ان المطلوب من الزوجة عند دخولها البيت الجديد توديع كافة صفاتها التربوية والاخلاقية التي اكتسبتها في

بيت اهلها ، وتنقمص شخصية زوجها فتدخل البيت الجديد كنسخة مطابقة للزوج ، او كورقة بيضاء جاهزة للنقش عليها من قبل ريشة الرجل !

في حين ان مقومات الاسرة الناجحة تتمثل بايجاد قناعات لدى الزوجين تحترم احقية كل منهما بالحفاظ على الملكات والصفات الشخصية ، ومن ثم بلورة صيغ مشتركة لتذليل المشاكل الطارئة عبر الحوار والتفاهم بروح ايجابية بدلا من الجدل وخوض معارك كلامية . وبالرغم من انتماءنا الى دين يقوم على اساس الحوار والدعوة بالكلمة الصادقة ونبذ العنف او الجدل العقيم وغير المجدي ، فانه من الصعب ان نتخيل زوجين يتحاوران بروح هادفة ، او نتصور حوارا عذبا بين الأب وابناءه ، او الام مع ابناها ، لاننا نعيش في مجتمع القطب الواحد !

مجتمعا غلب عليه منطق السلطة الفردية ابتداء من قمة الهرم الاجتماعي الذي يتمثل بالرموز السياسية التي صادرت الكلمة ، واعتقلت الرأي الاخر ، وحكمت بالاعدام على الحوار ، والتفاهم ونزولا بالمؤسسات الحكومية والاحزاب والجمعيات ، بل وحتى بعض احزاب المعارضة ان وجدت فانها محكومة بعقل واحد يصدق على قراراته الحزب كله شاء او ابى ، ومرورا بالصحف والمؤسسات التي يديرها مدير يترك بصماته في كل ماينشر .

ويرجع الأستاذ الدكتور علي ليلة - أستاذ الاجتماع بجامعة عين شمس - السبب في غياب الحوار الأسري، وتراجع قيمة الشورى إلى ثقافتنا التقليدية التي تؤكد «المجتمع الأبوي»، بمعنى أن الأب والأم دائماً مصدر السلطة والقرار (دون نقاش أو حوار) ، هذا إلى جانب تيار العزلة الذي فرض نفسه حديثاً على المجتمع؛ بسبب انشغال الآباء في تحصيل الرزق لتدبير احتياجات الأسرة، إلى جانب وسائل الاتصال الحديثة التي تأخذ وقت الكثيرين بشكل منفرد، وليس جماعياً، فحتى مشاهدة التلفاز يجلس الجميع أمامه في صمت تام، فهناك تقارب جسدي فقط، هذه الأسباب مجتمعة تجعل من الحوار أمراً غير وارد، وبالتالي تغيب الشورى بين أناس يغيب بينهم الحوار أصلاً.

من أجل ذلك كله يأتي دور الحوار والتفاهم في إبعاد الاوهام والظنون ، وحتى بعض المشاكل الواقعية من داخل رحم النفس وتميرها عبر آل النطق اللسان ، والبدء بعملية الحوار والتفاهم الذي يعمل على تفتيت الاوهام والظنون وازالتها من النفوس التي ينبغي اعمارها بالحب والوفاء .

ت - فقدان التوازن الشخصي

في المناخات الايجابية الهادئة لانستطيع عادة تشخيص بواطن سلوك الكثير من الناس الذين نجهلهم ، اذ ليس بإمكان كاشفات الضوء الساطعة واجواء الصفاء والرومانسية تشخيص جراحاتهم النفسية ومعاناتهم الشخصية ، والاطلاع على سير سلوكهم وماتضمره قلوبهم منذ ايام ولادتهم وماسبقها الايام في ظلمات الراحام !

ملفات قديمة

قد يتعرض المرء في عالم الراحام منذ انعقاد النطفة الأولى وبعدها الى طعنات نفسية وضغوط عصبية نتيجة تعرض الأم لظلم من قبل الاب او المحيط الخارجي او لتاثير مباشر من سلوك الام وتصرفاتها الخاطئة كنتاولها أكلة محرمة ، او مشاهدة افلام هابطة او مسلسلات مخلة بالقيم والمبادئ الحقة ، او قلق يراودها من مستقبل مجهول في ظل رجل مشوه الخلق ، سئ السريرة ، اناني لايجب الا نفسه .
في تلك الظلمات ينتقل الى الجنين تلك الموروثات الاخلاقية ، وتصنع شخصيته من تراب اطعمة الحرام وماء شرب الحرام ، وتتزود بهواء الضغوط النفسية الظالمة ، ويتطبع بالثقافات الغريبة ، وينشأ خياله من تلك الصور الماجنة التي مرت على بصر الام ، او من بصائر قرائنها للقران ، فتتبلور جميعها لتشكل شخصية فتاة او فتى المستقبل .

متى تتكشف الحقائق وتظهر على السطح جلية ؟

ليس ذلك بالسهل اليسير ، خاصة وان الانسان لديه قدرة هائلة على اخفاء الملايين من الملفات السرية حتى عن اقرب الاخلاء لديه ولفترة طويلة من الزمن .

قد تطفح بعض الاسرار على السطح في حالات التدافع والصراع اللاختيارية في دروب الحياة المختلفة ، ولولا هذا التدافع لتفوضت المجتمعات البشرية ، وفسدت عرى الحياة ، اذ قال الله في محكم كتابه الكريم .

(وَكَوَلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا الْحَج:40

عندها تنفجر على شكل براكين من اللؤم والشؤم والحسد تحرق ماحولها وتحول الاسرة الى جحيم ، او تنفجر انهارا من الحب ، واغصانا من الشهامة والحب والعطاء ، وكل اناء بما فيه ينضح .

من المؤسف حقا ان الناس تتخدع بالمظاهر التي تظلي ظاهر الفتى الذي يقدم على الزواج ، او تلك الفتاة التي يطرق بابها ، فكم من فتى كانت عليه سيماء الصالحين ، ويندى جبينه بالحب والشهامة ، ويشم منه رائحة الرجولة والكرم ، ومنتصور صلاح دينه وكمال اخلاقه ، ثم سرعان ماتكشف الايام عن صورة اخرى لا تشبه ما رأينا من قريب ولا من بعيد ، وكأنه دخل في فروة ذئب مفترس او جلدة خروف جبان !

كم من مرة طرقتنا باب فتاة يغمرها الحياء والخجل ، وتفوح منها دفيئ الايمان والسلام ، والتربية الصالحة ، والاخلاق الرفيعة ، ثم سرعان ماينم الزواج وتنتقل الى بيتها الجديد لتميط اللثام عن افعى ملمسها كالحرير عندما تشعر بالضعف ، وتبث السموم عندما تنفر عن وتستقوى ! في حين من المفترض ان تكون الخطوبة فترة اختبار وتمحيص للنوايا وبواطن الشخصية ، الا انها غالبا ماتتجه اتجاها بعيدا عن الواقع ، لقلّة خبرة الطرفين في التشخيص ، ولانغمارهم في الوهم والخيال ، حيث يسمو كل منهما على ثغراته الشخصية ، ويتستر على العيوب ، فتسمو الروح على الجسد ، لتخلق في نسيج الخيال ، فيرسم الفتى بريشة المبدع اجمل قصر لحبيبتة ، وترسم الفتاة جناحين تحوم بهما في سماء القصر ، فليس في كلامهما شئ من كلام البشر ، ولا في اخلاقهما كاخلاق البشر ، وهكذا الى ان تطأ اقدامهما البيت الجديد فيطفقان من ورق الخيال لتتكشف سؤتهما حيارى ، ويبان كل مستور وينكشف كل خفي .

ليس من الاجدر وبدلا من المكاشفة واستعراض الملفات الشخصية ، وعلاجها بمنطق الحوار ، وحوار المنطق ان يجعل كل طرف اصابعه على اعين الاخر ليستر مايدى له ، فتبقى تلك الدوائر كدمامل على سطح المعاشرة الزوجية تنفجر قيحا ودما ، كلما تعرض لضغط خارجي او احتكاك سلبي فتبقى تلك الجراحات داخل مكامن الشخصية لا تكشف عنها ولا تعالج ! بسبب اختلاف الظاهر مع الباطن فان مثل هذه الشخصية تكاد تكون غير متزنة ، فكلما اثرت جراحاته الداخلية يطلق العنان للسباب والشتم ، او الضرب والامتهان الجسدي ، او تعتزل التربية وتعلن استقالتها عن الحياة الاسرية ، فينقلب جو الاسرة الى جحيم بعد ان كان يسوده هدوء نسبيا ، الى حين وقت معلوم .

ثانيا : اطلاق

الطلاق لغة هو : التخلية والإرسال
وإصطلاحاً: حل عقد النكاح أو بعضه.

الطلاق **Divorce** انهيار كامل لمؤسسة الاسرة وتفككها بفعل مسخ رسمي او شرعي او كليهما لعقدة النكاح بين الزوجين .

قال الله في كتابه الكريم : {الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} [البقرة: 229]
وقد ورد في الروايات: (ان عرش الله سبحانه يهتز عند الطلاق).

وفي فقه المدارس الاسلامية تفاصيل دقيقة لاقسام الطلاق وأحكامه الشرعية المختلفة يمكن الرجوع اليها لمن يرغب الاستزادة ، ولكن من وجهة نظر اكااديمية فان الطلاق على شاكلتين :
الاولى : طلاق من طرف واحد يتقدم به لفسخ عقده النكاح من دون الرجوع والاتفاق وتوفر القناعة لدى الطرف الثاني ، وفي الغالب الاعم تكون المبادرة من جانب الزوج ، وما الزوجة الا الطرف المتلقي ، شاءت ام ابى .
هذا الشكل من الانفصال يكون اشد وطأة واكثر ألماً ، حيث تصاب المرأة هنا بالاحباط والانهيار النفسي ، وقد يكلفها الكثير من صحتها وسلامتها .
الثانية : تتم عبر الاتفاق الثنائي لانها تتم عن وجود أرضية للحوار ، او تعكس اخلاقية احترام المقابل حتى وان اختلف معها ، فهل تعيش الاسرة في مجتمعاتنا في ظل الحوار والتفاهم والاحترام المتبادل ؟

سيكولوجية الطلاق

تتحكم بالانسان قوى كثيرة تشده اليها ولايسعه الانفكاك عنها ، او تجنب اثارها الايجابية على سلوكه في البذل والعطاء ، أو السلبية في ضعفه وهوانه ، فهي للانسان كالطفل الى أمه ، او الابناء الى ابائهم ، او الانسان الى رفاقه واخلائه ، يستلهم منهم القوة والعزم ، ويخفف بهم الالام والمصاعب .

لعل من اشد تلك القوى التي اوثر في شخصية الانسان هي العلاقة الزوجية ، وماتحمل من تجاذب روحي قل مثيله .

تبدأ تباشير تلك العلاقة عندما يعلن المأذون عن لحظة بدء العلاقة الزوجية المباركة ، فتنفتح اسارير الزوجين ، ويختزلا الزمن فتمسي له رفيقة درب ومنفسا للكرب ، كما يكون الزوج حاميا لزوجته واما ورفيق حياة .

وكلما تحابا وتراحما في الله اشتدت عرى تلك العلاقة لتذوب هي في شخصيته ، وتتلون بلحن كلامه ، وتتبعه اتباع الفصيل اثر امه ، فان تاخر في المجئ الى البيت اضطربت اضطراب السليم ، واشتد خوفها وقلقها ، وان اصابه مكروه في جسده اصببت هي ايضا في روحها ونفسها حتى يبرأ ، وان عصفت رياح السموم بالبيت الجديد وتراكت الانهيارات وتشققت الجدران ، وجارت عليهم الاقدار ليفترقا ، بدأت حكاية العذاب والالم ، وقصة انفكاك الروح عن الجسد ، ورغم عزائها بالخلاص والنجاة والتحرر من المشاكل الاسرية لكن الممخاض طلق الطليقات يبقى فترة من الزمن .

كيف لا اذا كان قلع شجرة من حديقة منزلك تتحسس لفقدانها اياما ، فكيف بفراق من كانت تحيي وتعيش معك ولك ؟

درجة الاتقاد

عندما تبلغ المشاكل الاسرية ذروتها ، ويصل الزوجان كلاهما او احدهما الى حالة اليأس وفقدان الالم من اصلاح مافسد ، وتكون المعاشرة ضربا من الخيال والاستحالة لما تتعرض لها الزوجة او الزوج من ظلم وقهر واذلال ، او تتحول العلاقة الزوجية الى قيد للنزاع والمساس بالدين والقيم ، وتستوفي كل المحاولات من قبل الوجهاء ورجال الدين وتبرئ الذمة ، عندئذ تكون درجة الاتقاد على المقياس الصحيح لاقرار الانفصال ويكون الطلاق طريقا للسعادة والكرامة الانسانية .

أسباب الطلاق

عوامل اساسية كثيرة تجتمع لتشكل حزمة واحدة من المشاكل المستعصية تنفجر بمساعدة الاجواء المشجعة لتؤدي الى الطلاق .

سوء التفاهم وتصاعد وتيرة المشاكل لاتؤدي لوحدها الى الطلاق بل قد تهئ مناخا سلبيا تنضيجا له ، وهناك الكثير من العوائل ابتليت بأقسى انواع الامتهان لسنين طويلة لم تبلغ بعد درجة الانتقاد ، وبلوغ مرحلة قرار الطلاق ، واسر كثيرة نعرفها تعيش على شفير بركان من الحمم والازمات لسنين طويلة لم تفكر يوما في الطلاق .

هذه الازمات وتلك الالهانات عند هذه العوائل لاتعني الا الحياة الزوجية الطبيعية ، باعتبار ان الأزواج الذين لا يمارسون الاعتداء والامتهان ليسوا رجالا حقيقيين ، وكثيرا منهم لايتصورون ردود أفعال سلبية من زوجاتهم بسبب تلك القسوة والاهانة .

وبالتالي فان الطلاق عند تلك الاسر منطقة محرمة لايمكن الدخول اليها او التفكير فيها فضلا عن الحديث عنها او اقرارها .

العوامل التي تؤدي الى الطلاق اليوم يسخر منها الناس في الامس ، بل ويعتبرونها بطرا وفسادا ، كما ان العوامل التي كانت تؤدي الى الطلاق في الماضي نكاد نجزم بانها كانت عوامل واقعية ، وبالتالي تأكيد وصولها الى درجة الاستحالة واللاممكن في استمرار الحياة الزوجية !

نحن هنا نشير الى هذه الملاحظة لتثبيت حقيقة اعتبار غالبية حالات الانفصال والتفكك والطلاق التي تحدث اليوم لم تصل الى مرحلة استحالة العيش المشترك وان بلغت فان درجة الانتقاد اليوم لاتبلغ نصف ماكانت في الامس .

الناس وبسبب هيمنة المادة وعوامل العولمة افرغت من الكثير مما تملك من عناصر القوة الذاتية كالصبر والقناعة والايثار والشهامة والرجولة .

لقد ارتأينا ان نتماشى مع حركة الواقع ونسايرها لتحليل اسباب التفكك الأسري ، وعوامل الانهيار الاجتماعي وفقا لمشاهداتنا اليومية ، وعندما نبحت عن منافذ الخروج الاضطراري التي نهرب من خلالها باتجاه النجاة فاننا نسعى جاهدين لاستلهم المعالجات من وحي القيم والمبادئ الانسانية التي غيبت بعض الشئ عن الشارع العام ، وان نجمع بين النظرة الواقعية والنظرة القيمية التي تفرضها علينا القيم والمبادئ ، وهذه المعادلة تزيد الامر صعوبة وم الله السداد .

في الصفحات التالية نسعى الى معرفة الجذور الرئيسية التي ساهمت وهيأت بشكل مباشر او غير مباشر للطلاق ، ولعل من اهمها :

أ - الاختيار السيئ :

شاءت ارادة الباري تعالى ان يشيد البناء الكوني العظيم على قاعدة اختيار كل شئ لنظيره على اساس الدقة المتناهية والحكمة الرفيعة ، (سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53].

انظر الى بديع حكمة الله تعالى في حسن اختياره لحملة رسالاته من انبيائه والمرسلين واوصيائه المنتجبين ، فاخترهم بعد ان محص ايمانهم وعقولهم واخلاقهم وطهاره انسابهم من بين الملايين من الناس .

ان صلاح كل عمل ديني او دنيوي من مهنة او مؤسسة او خلافة او سياسة تكمن في الاختيار السليم للأفكار والرجال ، فلا تقوم للمؤسسات الناجحة قائمة الا بالاختيار السليم لافضل

المدرء الناجحين ، ولاتقوم الحكومات الا باختيار باختيار اقرب الكفاءات الى ثقافة الحاكم ومبادئه ، وتتجانس نواياهم مع مقاصده ، فلم يختار رسول الله ص لاداء مهماته الصعبة الا من قرب منه في التقوى والايامن ، فمن بين الالف من الصحابة اختار عليا ع من دون غيره ، ليحمل لواء الرسول في كل الادوار الرسالية ، كما لم يختار الخليفة الاول الا من خلص له كخالد بن الوليد ، ولم يختار يزيد بن معاوية الا عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد ، فلم يختار رسول الله (ص) ابو سفيان كما لم يختار عثمان بن عفان عمار بن ياسر وابو ذر (رض) . وهكذا الحال في مؤسسة الاسرة التي لاتستحكم على جادة السعادة والهناء الا باختيار المرء لشريك حياته على اساس التكافؤ في النوايا اولا ، وفي الاخلاقيات والعادات المشتركة ثانيا . لايحسن اختيار شاب مؤمن لفتاة تنكر وجود الله ، وتتنكر لكل القيم والمثل السامية مثلا ، ولاتستقيم اسرة يختار فيها شيخ هرم وهن العظم منه فتاة لم تبلغ العقد الثاني من العمر ، وصدق الرسول الاكرم ص حيث قال (لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ) . ومع هذا المنحى من التفكير لاينبغي لفتاة سالحة ان تتزوج من رجل فاسق فاجر ، ولا لرجل يحمل كمالات الادب والاخلاق من امراة سيئة السيرة كما يقول الرسول ص : اياكم وحضراء الدمن ، قالوا وماحضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء في منبت السوء .

من البديهي ان اختيار المرء لقرين يتناقض معه في النوايا كفيل بنسف قواعد البناء الأسري ، ويهدد استمرارها ، ويذهب بسعادتها ، فهو كالبناء على اساس هش ، اذ لاتجدي استقامة الرجل في سلامة الاسرة اذا لم تتشاطرهما استقامة الزوجة وصلاحها .
 (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) سورة النور 26

• متى يكون الاختيار سيئا ؟

لاسباب قيمية وتربوية اصيب الكثير من شبابنا بحالة من التيه والتخبط والغفلة وفقدان البصيرة ادت الى سوء الاختيار .
 الاختيار السيئ للنصف الاخر يكون لاسباب عديدة لعل من اهمها :

اولا : غلبة المظاهر على الحقائق

نتيجة لحمالات التعقيم والتضليل التي تستهدف العقل البشري من قبل المؤسسات العولمية اسدل الستار عن اثار سرائر الانسان وبواطن شخصيته فحل محلها المظاهر البراقة والخادعة التي تخفي وراءها الكثير .

فمتى رأى الشاب فتاة تفوح منها عطر الحب والمودة ، وتتشح بدثار الوقار والاخلاق خر صريعا فلا يرى افضل منها ولا اجمل ، فيغشى عليه راعا امام جسد جميل قد يخفي وراءه الكثير .

المشكلة ان لوحة الاختبار التي يقيس على اساسها الشاب لاختيار شريكة حياته قد تغيرت كثيرا ، وباتت سطحية للغاية تعتمد في الدرجة الاساس على المظاهر الخارجية كالمال والجمال والقيم المستوحاة من المسلسلات الاجنبية الهابطة ، ولذلك اضحى الانسان عاجزا عن سبر اغوار الشخصية لمعرفة طبيعتها بدقة وموضوعية من حيث القيم والمبادئ والنوايا والمقاصد التي تحملها .

ثانيا : تجريد شريك المستقبل عن أهله

كل انسان ملزم بالاسرة التي نشأ فيها ولاينفك عنها بأي حال من الاحوال ، فهو حصيد ثقافتها وقيمها ، وورث اخلاقها وتربيتها .
اختيار الفتاة هي اختيار لاسرتها بما تمثل من تاريخ وثقافة وادب ، كما ان قبول الفتاة يعني القبول باسرة الفتى بما فيها من سلبيات وايجابيات .
هكذا الامر بالنسبة للفتى الذي يحمل الى بيته الجديد موارث ابويه القيمية والاخلاقية والتربوية ، فان الفتاة تحمل على كتفها نوايا واخلاقيات وثقافات ابويها ، ليكون الزواج في الحقيقة مصاهرة اسرتين منفصلتين في اسرة واحدة .
أي خروج عن هذه المعادلة تعرض الاسرة الجديدة لمخاطر الانهيار والتفكك الاسري ، و هو مايقع فيه الكثير من الشباب عندما يختار فتاة ويرفض اهله ، او تقبل الفتاة بشاب وهي لاترضي اهله فيسعى كل واحد منهما الى تجسيد ذلك الاعتراض و غرض النظر عنه .
حتى اذا تحقق الاختيار ونزلا الى البيت الجديد واذا بالايام تكشف عن تلك الاخلاقيات التي ورثها الزوج من اهله ، واذا بام الفتاة التي اعترض الصهر على اخلاقها تتسلل الى البيت الجديد لتترجمها على ارض الواقع .
من هنا يأتي اهمية توصية الرسول الاكرم ص عندما يقول اختاروا لنطفكم فان العرق اساس ، ويحدثنا التاريخ ان الامام علي بن ابي طالب ع جاء يوما الى اخيه عقيل الذي كان عارفا بالانساب وسأله ليجث عن زوجة له من اهل بيت يزخرون بالشرف والشجاعة والايمان فتلد له بطلا ضرغاما ينصر ولده الحسين في كربلاء .

ثالثا : اعتناق العاطفة ومغادرة العقل

من المفترض ان يكون الاختيار مرحلة لكشف الاخلاقيات والصفات الجوهرية والملازمة لزوجة المستقبل من قبل الشاب ، وتتعرف فيها الفتاة عن الخلفيات التربوية لزوج المستقبل .
بيد ان الكثير من الشباب يتجردون عن النظر الى الفتاة بنظرة موضوعية كاشفة ، فيصرع الشاب تحت وابل زخات العاطفة التي تشع من الفتاة ، وتتهار الفتاة حين يقدم عليها شاب فتعشوا عن رؤية حقيقته ، فتتعانق العواطف ، ويضع الطرفان العقل جانبا .
في ظل هذا التحجر العقلي يصاب الفتى والفتاة بقصر النظر ، وضعف في التشخيص ، وعندما تظهر على السطح شائبة اخلاقية او قيمية فيحسبها الفتى هفوة من الفتاة وزلة لسان ،

او تتكشف نوايا او بعض المقاصد فتعجز الفتاة عن الوقوف عندها للتأمل فيها ، واتخاذ الموقف المناسب منها قبل فوات الاوان، وروي عن الامام جعفر الصادق ع قوله
كم من عقل امير عند هوى أسير .

كم من فتى اكتشف سوء منبت زوجته في مرحلة الاختيار ، ولم يتخذ في حينها موقفا سليما ولما دخلا البيت الجديد وتعانقت المشاعر والعواطف ، وانكشفت الافئدة فيصطدم بصورة يعجز عن النظر اليها فضلا عن التعايش معها .

رابعا : تهافت نظرية التغيير

في خضم سهام الاهواء والعواطف قد تتكشف للشباب بعض خفايا زوجة المستقبل ، وبدلا من الوقوف عندها وتقييم شخصيتها وتدبر عاقبة الزواج منها نراه يعمد الى تبريرها لامن اجل الاستخفاف بها بل بنية تغيير سيئاتها الى حسنات بعد حين .
مدرسة الحياة اثبتت ان نظرية تغيير شخصية الزوج من قبل الزوجة او بالعكس شهدت افلاسها وعجزها الذريع ، نعم قد يكسب الزوج من زوجته صفات سلبية او ايجابية او يحدث العكس ، ولكن لايمكن تغيير القناعات والنوايا الا اذا شاءت ارادة الانسان نفسه للتغيير ، بل حتى الانبياء والمرسلين والائمة الصالحين لم يكن هدفهم تغيير الناس بقدر تهيئة الاجواء المناسبة لتقبل الرسالة الالهية ، وتوفير وسائل الايضاح ، والنزول الى الناس بالمعجز الخارقة للعادة ، ومن هنا كانت الاية الكريمة صريحة في بيانها (لا يغير الله مايقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) هذا هو اسلوب الانبياء في التغيير فما بالناس نحن عوام البشر .
في ظل هذه اليافطة البراقة صرع الكثير من شبابنا ، وانهارت ارادتهم عندما اكتشفوا عجزهم عن امكانية تغيير قيم واخلاقيات شريك الحياة او شريكها لتنهيار صرح الاسرة باعلان الانفصال، او تحمل عاهات اخلاقية الى اخر العمر .

خامسا : الفقر الاجتماعي

نتيجة لفساد الاجواء الاخلاقية تنكمش الكثير من الاسر وتتخذ على نفسها وتعلن عن تجميد علاقاتها الاجتماعية اعتقادا منها بجدوى هذا الاسلوب لحماية ابناءها .
او قد تتخذ قرار الانعزال والانغلاق بسبب فقرها او للامراض الاجتماعية التي تعاني منها .
الامر الذي يدفع ثمنه ابناءها من قلة الخيارات المتاحة امامها لاختيار الشريك المناسب ، وبالتالي اجبارهم او رضوخهم للقبول بما هو متوفر ولو كان على حساب الاهلية والكفاءة .

فكم من فتاة مزهرة بالاخلاق والتربية الصالحة رضخت للقبول بشاب بعيد عنها بعد المشركين من الاخلاق والتربية لقلّة الخاطبين لها ، وكم من فتى كان قمة من الشموخ والادب والاخلاق سقط ضحية اختيار امرأة على النقيض منه في الادب والاخلاق ، لتكون نتيجة هذا وتلك الزيجة الانهيار والطلاق ولو بعد حين .

ب – الانهيار الاجتماعي

عندما تغيب الشمس يسدل الظلام جناحه على كل مكان ، ولايستثنى من ذلك الظلام أي منزل ، وعندما يسود التخلف امة من الامم لايفر من هناتها احد الا ماندر ، وعندما تغزو الافكار والثقافات الفاسدة مجتمعا ما تؤثر في كل زاوية منها لتبلغ حتى دور العبادة والدعاء بشكل من الاشكال ، وعندما تستورد عادات واخلاقيات فاسدة الى مجتمع ما يؤثر سلبا على كل مفاصل المجتمع ابتداء من الاسرة وحتى دور العلم والجامعات ، وقلما يسلم منها احد الا عباد الله المخلصين ، وعندما ينهار جبل جليدي من قمة جبل يكتسح في طريقه كل البيوت والاشجار والدواب ابتداء من الاضعف وانتهاء بالاقوى .

كذلك اذا انهارت الاسس الاخلاقية للمجتمع ، وساد الفساد وشاعت العادات والتقاليد المستوردة ، وصار المعروف منكرا يتناهى عنه ، والمنكر معروفا يقنّدى به ، فانها تفرض سحابة من الامراض الاجتماعية تهيمن على كل البيوت بلا استثناء لتؤثر عليها كل حسب قوة الردع التي تمتلكها ، فكلما ضعفت صارت عرضة للانهيار والتفكك قبل الاخرى .

قد لاينجو من وطأة الانهيار الاجتماعي الكبير حتى بعض الأسر التي اوتيت قدرا من التلاحم والتكافؤ لتعلن استسلامها امام تحديات الموجة الثقافية العاتية التي اجتاحت حاراتنا ، وتسقلت الى بيوتاتنا عبر كل منفذ .

هذه الموجة التي دخلت عبر الهواء والماء والطعام ، مع الملابس والديكور ، مع جهاز الحاسوب والنقال والريسفر ، والف طريق وطريق اصابة الامة شر اصابة ، فكم من اسرة تهاوى صرحها عند اتفه الاسباب والتحديات بسبب استنشاقها لسوموم ذلك الانهيار، وتشبعها بالروح الهدامة ، هذه الروح التي كانت غريبة على اجوائنا الاجتماعية بسبب قوة المناعة الداخلية لدى الانسان المسلم المتمثلة بالصبر والحلم والقناعة والايمان والتعاون ، وبسبب قوة الاجواء العامة ومثانتها لتزودها بثقافة البناء والروح العالية ، والمناقب والاخلاقيات الرفيعة .

قديما كان للوجهاء في المجتمع الدور الكبير في حماية الناس وتكريس القيم الاصيلية عبر الكلمة الطيبة ، والتوجيه بالحكمة ، والرعاية الابوية ، وكان لرجال الدين الفضل الاكبر في تشييد وايجاد مسحة ايمانية رائعة لدى المجتمع ، ولينعم الناس بالمعنويات العالية .

حتى اذا غزت مجتمعاتنا افكارا هدامة جنت علينا ، فاقتلعت او كادت تقتلع الامن والسلام من نفوس الناس ليحل محلها القلق والتوتر والطمع والجشع ، وتعلن حربا على المناقب والمثل

والاخلاقيات ، ولتزرع محلها الانانية وحب الذات والاهتمام بالمظاهر ، وتدعو الى محاربة العفة والحشمة وتبذر محلها الميوعة والتبرج والانحلال والاختلاط الفاحش .
عندئذ اعلنت مجتمعاتنا حالة الحداد ، وقررت لبس السواد على رحيل عناصر القوة والمناعة في الاسرة ، واندثار الحوار والتفاهم بين الاباء والابناء ، شح الكلام الطيب والحكمة البالغة ، وغابت النصيحة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واصيب الجميع بالوهن والعجز عن حل مشاكل الحياة ، وتعطل حسن الظن وافتت العلاقات الاجتماعية ، وشاعت الخلافات بين الاسر القريبة ، ثم بين الاب وابناءه ، ثم بين الاب والام لتنهار اخر لبنة من ذلك الحصن المنيع .

ظواهر الانهيار الاجتماعي

اولا : ظاهرة الفساد الاخلاقي

الفساد في معاجم اللغة هو في (فسد) ضد صلح (والفساد) لغة البطلان، فيقال فسد الشيء أي بطل واضمحل، هي كل ممارسة تشذ عن الفطرة الانسانية ، وتتعارض مع الدين القويم ، وتتنافى مع العقل السليم .

لاتتخذ نمطا واحدا ولاشكلا محددًا ، فهي تتزين في كل عصر بلون ، وتتدثر في كل يوم بدثار ، قد تدخل المجتمع بشكل علاقة غير مشروعة بين رجل وامرأة باسم الزنا ، ومرة باسم الحب ، واخرى باسم كيل افريند (Girl friend) .

او قد تكون على شكل مجلة تحمل عنوانا بريئا فتبث الميوعة بين الشباب وتنتشر الفسق والفجور والرذيلة بينهم ، او على شكل قناة فضائية هابطة تنقل الفساد بالصوت والصورة باسم الفن والتحضر ، او عن طريق جمعيات واحزاب تدعو الى الاختلاط المحرم باسم رحلات مدرسية او رحلات التنفيه والتنفيس عن الخواطر .

او قد تكون عبر إهدار للدماء وهتك الاعراض ، وقتل للنفس البريئة بفتاوى التكفير الصادرة عن رجال من الشياطين يتلبسون بلباس الدين .

ومهما تنوعت صور الفساد واينما نشأت فهي فساد ، سواء انبثق من مجتمع اوروبي كالسويد مثلا او مجتمع مسلم كالجزائر او ايران ، فلا يمكن ان ندعي بان ماهو فساد في مجتمع مسلم ليس فسادا في مجتمع اوروبي ، نحن هنا نختلف على التسميات ، ففي اوروبا يتم تجنب استخدام المصطلحات الدينية فيما يسمونه بالعلاقات الانسانية .

فمثلا الاولاد اللقطاء يسمونهم اولاد الحب لكي لا يتم تصنيفهم ضمن الاطار الديني الذي من شأنه تهديد المنهج العلماني في بناء الحياة بعيدا كل البعد عن الدين اصطلاحا او مفاهيم .

ففي يوم من ايام التاريخ الغابر كان الدين حاكما في مجتمعات اوروبا ، (نقصد به الدين الذي نزل على الانبياء رحمة للعالمين لادين رجال الكنيسة)، وكان حينذاك الخمر والزنا والقمار واكل الحرام مفردات للفساد ، ولكن بعد انتشار الفساد وتشبع الناس به وتطبع النفوس عليه اصبح ظاهرة اجتماعية وجزء من التكوين الاجتماعي .

ويوم أمس كان الفساد الأخلاقي في المجتمعات المسلمة لاتتجاوز حوادث فردية هنا أو هناك لكنها اليوم وبفعل عوامل عديدة تحولت الى ظواهر متأصلة تستوجب إهتمام الباحثين من أجل مكافحتها، ففي مصر: أكدت دراسة أعدتها د. فادية أبو شهبة- أستاذ القانون الجنائي

بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة- أن هناك 20 ألف حالة اغتصاب وتحرش جنسي تُرتكب في مصر سنوياً؛ أي أن هناك حوالي 10 اغتصاب وتحرش تتم كل ساعة تقريباً، وأن 90% من جملة القائمين بعمليات الاغتصاب عاطلون، وقدّرت الدراسة أن حوادث الاختطاف والاغتصاب تقع بنسبة 10% منها من صغار السن ، وبمعدل حادثتين كل يوم تقريباً.

وفي الأردن: شهد عام 2005م تسجيل 437 حالة تحرش جنسي، كما أكدت إحصائية رسمية من وزارة الداخلية الكويتية ارتفاع معدلات الجريمة بشكل عام في الكويت خلال العام الواحد إلى أكثر من 22 ألف جريمة بمعدل 60 جريمة في اليوم الواحد منها 435 جريمة هتك عرض سنوياً ، وهو ما يؤكد على تفاقم ظاهرة الاغتصاب ليس في مصر فقط، ولكن في كافة الدول العربية ، كما أكدت إحصائية رسمية من وزارة الداخلية الكويتية ارتفاع معدلات

الجريمة بشكل عام في الكويت خلال العام الواحد إلى أكثر من 22 ألف جريمة بمعدل 60 جريمة في اليوم الواحد منها 435 جريمة هنك عرض سنوياً وأن " أكثر من 600 امرأة مغربية تلجأ إلى الإجهاض يومياً. هذا الرقم كشفت عنه دراسة أجرتها خلال 2007 الجمعية المغربية لتنظيم الأسرة، وأكدت الدراسة أن الإجهاض يهم 8239000 امرأة مغربية، تتراوح أعمارهن ما بين 15 سنة و 49 سنة، من بين هذا الرقم تمثل المتزوجات 52 في المائة والعازبات 42 في المائة، أما المطلقات والأرامل فلا يتجاوزن مجتمعات نسبة 6 في المائة" والحق سبحانه يحذرنا بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿19﴾ النور

كيف ينتشر الفساد ؟

يبدأ عادة كحالات فردية غريبة تمارس في الخفاء من قبل رجل هنا او امرأة هناك ، او فكرة ضالة او كتاب او قصيدة ، تكون بمثابة بالون اختبار لحصانة المجتمع ومناعته الداخلية ، فاذا لم يردعه العقلاء ولم يمنعه الوجهاء والمصلحين تحت ذريعة الحرية الشخصية او عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، حمل ذلك الفساد هوية وشهادة وصار واقعا يعيش جنبا الى جنب الفضيلة والايمان ، وان لم يردع ذلك الفساد ذاتيا عند الناس وهو اضعف الايمان ازداد رصيد ذلك الفساد ، ويبدأ بالانتشار السريع كالنار في الهشيم .

ثم تبدأ بتلقف المارين امامها في الطريق ، فكلما هرب شاب من وطأة اسرة ممزقة تتكون من اب لابالي وام انانية ، او رب اسرة استسلم للهوى امام النزاعات اليومية المتكررة مع زوجته ، أو امرأة تمارس الرذيلة بسبب الفقر والعطالة ، لتتحول هذه الحالات الفردية الى ظواهر اجتماعية مستحكمة ، من هنا يشير القران الكريم الى تاثير الفساد الفردي في خلق الظاهرة الاجتماعية بقوله

(من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعا) اية 32 المائدة .

نعم اذا عم الفساد واصبح ظاهرة كما هو اليوم في الكثير من مجتمعاتنا فان الاسرة لاتسلم على سلامتها وتماسكها الا بجهد جهيد ، وحتى لو انها غلقت الابواب في وجه تلك الظواهر فانها سرعان ماتتسلل عبر كابل كيبل التلفاز او شبكة الانترنت أو بعض القنوات الفضائية التي تبت الفسق والانحلال ، وتدعو الى التفكك والطلاق داخل بيوتنا .

ظواهر الانهيار الاجتماعي

ثانيا : العلاقات غير المشروعة ..

يعتمد النظام الكوني على منظومة شمولية دقيقة تتداخل فيه كل سننه وشرائعه لتتشارك في حركة انسيابية واحدة لاتلكؤ فيها ولاتسارع ، ولاتبدل لتلك السنن ولاتغيير ، ولا تناقض في فصولها ولاتضارب.

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)سورة فاطر 43

لن تجد لسنة تسير بهدي الله وحكمته ، تزيغ عن امر الله أو تميل عن طاعته المطلقة ، وكل شئ في الكون من اصغر ذرة الى اكبر مجرة تنقاد اليه تعالى ، وتسبح بحمده .

(تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً)

تتجلى تلك الطاعة في حركة الارض حول الشمس منذ ملايين السنين في مدار دقيق لايتغير قيد انملة ، او في دوران القمر حول الارض ، او في تناغم اجهزة الجسم في حركة واحدة ومنكاملة ، وهي تتطلع على جريان الدم في اودية بنسق واحد الى كل خلية في جسد الانسان .

وعلى مشارف هذا الكون يعيش الانسان ذلك الجرم الصغير في كنف منظومة قيمية رائعة من وحي رسالات الله تعالى ورسله تستهدف تكامله وسعادته ، وحرية وسلامته ، وترسم له معالم الطريق وسط زحام السير من طواغيت وجبت النفوس في كل تفاصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

هذه المنظومة الانسانية تعتبر امتدادا للمنظومة الكونية ، ومنسجمة معها في المبادئ والغايات لكنها تختلف معها في الاداء لانها تتحرك بارادة تكوينية من دون اختيار او ارادة . اما المنظومة الانسانية فانها منوطة بحرية الانسان في الاتباع او الاعراض ، في الايمان او الكفر ، فبينما تتحرك الارض حول الشمس من دون اختيار ، نرى قدرة الانسان وحرية على اتباع الدين والتقيد بشريعته او مخالفته الى سواه .
(انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

اذا مشى الانسان في ظل الرسالة عاش حرا كريما ، واذا سار خلافها فانه يدفع ثمن تخلفه ذلك بشقاء وعبودية وفقر وحروب وويلات .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)سورة طه

وان العلاقات الاجتماعية التي لا تتحرك وفق معايير المنظومة القيمية تعد علاقات غير سليمة لاتصب في مصلحة الانسان وبالتالي فانها علاقات غير شرعية .
فالمعاصي والذنوب من قبيل الزنا والاختلاط المحرم مثلا انما هي حصاد لما زرعه الانسان ولا تؤتي لصاحبها الا الهزيمة والانهيار والتفكك الاسري والطلاق والكآبة والانتحار أو الفقر والحروب والأمراض ، فشرب الخمر مثلا تنتهي بصاحبه الى تصلب الشرايين والموت ،
ومرورا بفقدان الوعي واهمال الاسرة وضياع المال واثارا ثقافية خطيرة تهدد الفرد والجماعة
بينما العلاقات الغير مشروعة قبل الزواج تؤدي الى الفتور الجنسي كما تؤكد عليها الدكتورة
"هبة قطب" أخصائية العلاقات الزوجية واستاذة الطب الشرعي بكلية الطب جامعة القاهرة
حيث تقول أن الشباب الذي يقيم علاقات جنسية سابقة يعاني من "تشكيل مسبق للقلب
الجنسي"، وهو ما يؤدي إلى إحساسه بفتور تجاه زوجته .

وبالتالي فان العلاقات غير الشرعية كالزنا ومقدماتها تؤدي الى نتائج كارثية عديدة منها :

أولا : تورث امراضا ..

كما ان التدخين او تناول نسب كبيرة من الدهون والسكريات وكل عادة سيئة اخرى تؤدي الى الاضرار بصحة الانسان وتصيب اجهزته بالتوقف او العطب ، فان السير بخلاف قوانين الله وشرائعه تؤدي الى اصابات واضرار لاتقل خطورة عن امراض الجسد .
فالعلاقات غير الشرعية كما يؤكد العلماء تهدد بالصميم اخطر عنصر من عناصر شخصية الانسان الا وهو عنصر الاستقرار والسكون النفسي .
ذلك السكون الذي امسى حلم الكثير من الشباب في يوم عصفت فيه العولمة بكل النظم والقيم التي تحفز الانسان وتوجهه الى شاطئ السعادة والامان .
الاستقرار والسلام الداخلي ينبع من خلال السير وفق النظم والموازين التي تتناغم مع الانسان وتصفق له ، بينما الاضطراب النفسي والتوتر والكآبة تأتي من خلال حالات القلق الذي يعانيه الانسان في الطريق المعاكس لطريق الصلاح ..
يقول عالم الأعصاب في جمعية الصداع النصفي الإيطالية **لورنزو بينيسي Lorans Benisy** ان ألم الرأس التي تصيب حوالي 15% من سكان إيطاليا انما لاسباب من بينها الأطعمة المثيرة للشهوة الجنسية والأدوية لتحسين الأداء الجنسي والضغط الجسدي والنفسي الناجم عن السعي للحفاظ على سرية العلاقة الخارجة عن نطاق الحياة الزوجية -
وأضاف ان ألم الرأس قد تدوم لحوالي 3 ساعات وقد تتسبب بتمدد الأوعية الدموية في الدماغ لدى 2 إلى 3% من الحالات
وقال بينيسي أيضاً ان على من يعانون من ألم الرأس أن يضعوا حداً لعلاقتهم غير الشرعية ويجروا مسحاً مقطعيًا للدماغ

ثانيا : تشل حالة الانتماء الأسري ..

الشعور بالثقة والامان يجسدان حالة الولاء والانتماء للأسرة وتشد من عرى الارتباط بها ، واي شئ يكيد بتلك الثقة ويزعزع الاحساس بالامان فانه يؤدي الى اضعاف حالة الولاء المقدس للأسرة ، وهذا ماترمي اليه العلاقات غير الشرعية التي تذهب باحساس الانسان وولاءه وتعصف به خارج دائرة الاسرة حيث مواقع الاهواء والشهوات والشياطين فيمسي ذلك الانسان جسدا بلا روح ، وحياة بلا عاطفة او رحمة .

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيهِ جَوْفَهُ) . سورة الأحزاب 4

قد يحسب الانسان الخاطيء بان تلك العلاقة تشكل قارب نجاة من مشاكله الاسرية او منتفسا لما يعاناه من كرب وهو لا يدري ان العلاقة الخاطئة تزيد من همومه ومشاكله ، وتضعف من قدرته على مقاومة الصعوبات ، وتشل ارادته اللازمة للصبر والحكمة من اجل استيعاب العثرات وتجاوزها .

ومن الناس من يبحث عن السعادة عبر مخالفة الطريق السليم ، فلا يدرك تلك السعادة التي ينشدها لانها بكل بساطة تكمن في بيته ونفسه.

ثالثا : آثارا بلا حدود ..

لاتتوقف اثار العلاقات غير المشروعة عند حد معين ، فهي تتحدى الاثير لتبلغ سمومها الارض والسماء ، وتتخطى الجغرافيا في تموجات لاتعرف التوقف ، وتخرق الزمن لتبقى نتائجها مادامت الدنيا .

قد تتوقف اثار معصية شرب الخمر في الفرد والمجتمع عند عودة المذنب الى رشده ووعيه بالتوبة والاستغفار لربه ، الا ان الزنا تخلق واقعا جديدا في المجتمع ، انظر الى العلاقة غير الشرعية بين ميسون زوجة معاوية بن ابي سفيان كما يحدثنا التاريخ في صحاح المسلمين ، حيث كانت تاتي الفاحشة مع عبد لابيها ومنه حملت يزيد الذي اجهر بالفسق والفجور وشيد اصول الظلم والاستبداد والحكم الجائر للبيعة في التاريخ .

لقد سأل يزيد ابن معاوية يوما الامام الحسن بن علي ع قائلا :

ياحسن اني ابغضك ، فاجابه الامام : ذلك لان الشيطان شارك اباك حينما ساور امك

فاختلط الماءان .

انظر الى علاقة اخرى حدثت في قرية نائية من قرى العراق بين امرأة ضالة ورجل مجهول لتلد منه شخصا دمر شعبه واحرق خيراته ، وهتك الاعراض وقتل الادباء والعلماء وألحق الدمار بشعوب المنطقة لتبلغ اثار جبروته اقصى اصقاع الارض ، ولسوف تبقى الانسانية والاجيال تدفع ثمن تلك العلاقة مادامت الدنيا .

رابعا : الفساد الاجتماعي ..

مسؤولية المحيط الاجتماعي تكمن في توفير المناخ الايجابي لنشأة افراد المجتمع على الخير والعطاء وتحصينهم من الثقافات والعادات التي تسترق سماء المجتمع متسللة الى الاسر والبيوتات لتسوق للافكار والثقافات الهابطة ...

واذا كان المحيط الاجتماعي مشوبا بالفتنة والفساد واضمحلال القيم الحضارية فان ذلك يضاعف من مسؤوليات الاباء اتجاه ابناءهم الذين يتعرضون الى كم هائل من السموم التي تبثها تلك الاجواء لتخترق نفوس الابناء مباشرة .

ان اعراض العلاقات غير السليمة لا تتوقف عند حد الاسرة التي ينتمي اليها صاحبها بل تسري مسرى النار في الهشيم لتؤثر على المحيط الاجتماعي كله تاركا اثاره وبصماته الى يوم يبعثون ، فقد روى الامام علي بن ابي طالب ع عن رسول الله ص قوله :

(لاتزنوا فيذهب الله لذة نساءكم من اجوافكم ، وعفوا تعف نساءكم ، ان بني فلان زنوا فزنت نساؤهم)

مكارم الاخلاق ص 238 .

ظواهر الانهيار الاجتماعي

ثالثا : المحرمات المحللة ..

أمن المجتمع وسلامته منوط بانقياد ابنائه للمثل والمبادئ السامية ، تلك المثل التي تضمن استقرار الانسانية وسعادتها ، وكافح من اجلها الانبياء والمرسلين على طول التاريخ الانساني .

أما انهيار المجتمع وتفككه فانه نتيجة منطقية لاعراض ابنائه عن تلك المثل والمبادئ ، وقد دفعت الكثير من الامم ثمن اعراضها وتخليها عبر فاتورة الفقر او الامراض او الارهاب والتفكك الاسري .

في الكثير من مجتمعاتنا تتراى للعيان الممارسات الفاضحة للحرمت وابتعادها عن المثل ، وتحول تلك الحرمت الى واقع يلفت الانظار من خلال اثار وعوارض خطيرة نورد اهمها ..

1 - ميوعة الشباب

تستهدف منظومة القيم الاسلامية بناء شخصية متزنة بمستوى انزان تلك القيم ، وامتسامية ترقى الى مستوى الروح الايمانية العالية ، وواقعية على تماس بالارض التي يقف عليها . ليس مطلوبا من شبابنا ان ينغلقوا على الواقع المعاش ، ولا ان يطلقوا الدنيا ويعيشوا حياة الرهبة والانقطاع عن الدنيا ، ولا ان ينقلبوا على الفكر ويتعالوا على الايمان بالله كما حال الكثير من الشباب اليوم .

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) القصص (اية 77

ظاهرة ميوعة الشباب اليوم احدى ظواهر الانقلاب على القيم والمبادئ والتخلي عن الايمان بالله تعالى ، تستحق الوقوف عليها وتحليل ابعادها .

في كثير من مجتمعاتنا تتمظهر وتتجسد الميوعة بالملبس المبتذل وتقليد النساء في بعض مظاهرهن ، واجراء عمليات التجميل ، وفي طريقة النطق او السير ، هذه المظاهر تمثل انعكاسا لانسلاخ الفكر عن المبادئ ، وانهيارا للقواعد التحتية القيمة للمجتمع .

يقول سيد قطب واصفا هذه ميوعة الشباب : إنها صورة النفوس الفارغة التي لا تعرف الجد ، فتلهو في أخطر المواقع ، وتهزل في مواطن الجد ، وتستهنتر في مواطن القداسة ، و النفس التي تفرغ من الجد والاحتفال بالقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة و الجذب و الانحلال ، فلا تصلح للنهوض بعبء ، و لا الاضطلاع بواجب ، و لا القيام بتكليف ، و تغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة ...

كيف يكون حال اسرة عندما يكون فيها الاب متشبهاً بأخلاق النساء ، وقد ارتدت الام جلاباب الرجل في اخلاقه وصفاته ، ومن هنا نرى نهى ائمة المسلمين عن التشبه بالنساء في عشرات من الاحاديث ، منها حديث للإمام الصادق ع :
(خير شبابكم من تشبه بكهولكم) ، مكارم الاخلاق ص 128 وحديث اخر يقول فيه الامام الصادق ع : كان رسول الله ص يزجر الرجل ان يتشبه بالنساء . المصدر السابق ص 128

2 - الابتعاد عن العبادات

العابد هو ذلك الانسان الذي يحمل اجهزة استقبال مرهفة الحساسية ، تتمثل بعين تبصر الى ما وراء الصور ، واذن تسمع احسن الكلام وتدع اللغو ، وقلب يحلل الاحداث والكلمات والصور لترى من خلالها عظمة الخلق ، وجمال الخالق ، وبداعة الخليفة .
اما العبادة فهي عملية استقبال للذبذبات النقية التي يبثها خالق السماوات والارض وترجمتها الى سلوك رحمي ، واخلاق رفيعة ، وعطاء بلا حدود .
(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات 56

العبادات علاوة على انها واجبة اتيانها ، فانها تصب في خدمة الانسان والمجتمع ، فهي تورث الانسان مناعة من السقوط في الاخطاء التي يعبر عنها بالمعاصي والذنوب والاثام ، وتضخ الصبر في شخصية الانسان لتمنعه من الوقوع في الخطايا والاطياء وتثبت اقدمه على الصواب ، وتزق الانسان بالحكمة السليمة من اجل حياة ملؤها الامل والعمل والسعادة .
لو نظرنا الى عالم اليوم لرأينا الكثير من الناس قد هربوا من التعبد فصاروا كاوراق الخريف تتساقط عند كل نسمة ، وتتعثر عند اصغر مشكلة ، لا لان الناس لايؤمنون بالله ، بل لضعف احساسهم بجدوى التعبد ، وللجذب الروحي الذي يعاني منه الانسان في عصر العولمة .
مما زاد الطين بلة فريفا من الناس اساؤا فهم الاسلام وقرأوا القران بالمقلوب ، واخطأوا تأويله وظلوا فهمه ، هؤلاء يمثلون صورة سيئة للاسلام ، وهم يحملون القران بيد والسيف بالآخري ، يقطعون به رقاب الابرياء ، وبدلا من ان يكونوا دعاة للخير اضحوا دعاة للفتك والقتل والارهاب وتشويه الصورة الانسانية للدين الحنيف ، وكانوا سببا في ابتعاد الكثير من الشباب عن الاسلام وتعاليمه السمحاء .

وبالتالي فان تغرب الناس عن العبادات ساهم بشكل كبير في ارساء دعائم اسرة هزيلة لاتملك المناعة لخوض مشوار الحياة ، مما ادى الى اشاعة ظاهرة التفكك والطلاق ، هذه الصورة المأساوية انتستنا صورة مجتمعاتنا يوم امس عندما كان الانسان يحمل هوية ويعتقد بها لتتير دربه وتشرح صدره رغم صعوبات الحياة ومشاقها .

3 - أزمة الحشمة

دعاة التبرج والانفتاح يبررون كشف المرأة عن مفاتها بعدم أهمية الحجاب والملابس المحتشمة في تماسك المجتمع ووحدته الداخلية .
هذه الدعاوى تنهار الواحدة تلو الأخرى ولا تصمد امام البحث العلمي لانها مغالطات اريد بها تحقيق مآرب واهداف مؤسسات كبرى تستهدف النيل من وحدة المجتمعات المسلمة من الداخل بعد ان عجزت عن مقارعتها من الخارج .
ويمكن ان نشير هنا الى ابرز تلك المغالطات ..

المغالطة الاولى : عدم اهمية الظاهر

يدعي الكثير من دعاة التبرج بان القيمة الحقيقية للانسان والمرأة بشكل خاص تكمن في ما يحمله القلب من قيم ومعاني وليس للحجاب اهمية في ابراز قيمة المرأة ، ولا علاقة للحشمة بالسماة الداخلية للانسان ، فما جدوى ان ترتدي المرأة جلبابا اذا كان الداخل من شخصيتها ضعيفا ومهزوزا ؟
وما فائدة امراة ترتدي الحجاب اذا كانت تفنقر للثقافة والقيم ؟
دعونا اذا نركز على المضامين الداخلية لشخصية المرأة ، ونترك المظهر الخارجي للموضة والحرية في انتخاب الملابس .
هذه المغالطة لا تصمد امام الحقيقة التالية :

- المظاهر انعكاس للداخل

منظومة القيم التي يحملها الانسان تمثل قاعدة الانطلاق الفكرية التي توجه الانسان وتقوده ، واية حركة وسلوك تعد في الحقيقة ذبذبات مرسله من تلك المنظومة ولا نستطيع ان نفصل بين السلوك والفكر الا في بعض الحالات المرضية .
العبادات مثلا تصرفات سلوكية تتأتى من دوافع داخلية ، فالانسان الذي يستيقظ في منتصف الليل ممزقا حالة الصمت ، مخترقا ذلك النسيج الممتع من النوم والراحة وسط ليل شتاء قارص ، ماهي الا انعكاس لقوة عملاقة تنطلق من داخل الانسان متمثلة بالايمان بالله تعالى وتقواه .

كما ان الجوع والعطش الذي يتحملة الصائم في شهر رمضان المبارك ماهو الا انعكاس لحركة نائرة من داخل المنظومة القيمية تدفعه الى الصمود امام اعنى غرائز الانسان واقواها كغريزة الجنس والاكل والشرب .

ان السلوك الرحيمي الذي يتصدر الانسان باتجاه والديه تعكس قناعات تنبثق من داخله قاصدة بر الوالدين والتحنن اليهما .

كل سلوك ومظهر خارجي يعبر في الحقيقة عن نتيجة لما يضره الداخل الانساني ، فان كان قائما على اساس منظومة مادية او وجودية كان سلوكه كذلك والعكس صحيح ايضا .

من هنا فان اهمية المظهر واللباس الخارجي لانقل عن اهمية الداخل وكلاهما يشكلان نمط انساني واحد ، فالبرتقالة الطازجة تحمل قشرة تدل على طيبيتها ، والفاكهة النتنة في قشرتها تحمل نتانة في داخلها .

الفتاة التي لاترتدي ملابس محتشمة لانستطيع ان نصور لها داخلا محتشما ، فاذا امننت الفتاة بمبادئ الحشمة فانها تكون مدعاة لمظهر وملبس محتشم ، وكل اناء بالذي فيه ينضح .

اننا لانستطيع مطالبة امراة تحمل مبادئ التحرر والتبرج ان ترتدي الحجاب كما لانستطيع مطالبة امراة محتشمة الى التحرر والتبرج ، فالفتاة المحتشمة بالاضافة الى كونها مظهرا لمنظومة قيم السماء التي تدعو الى العفاف والستر والوحدة الاجتماعية ، وتدعو الى تحصينها من مخاطر الانهيارات الاسرية ، فانها تحتجب عن ارسال الذبذبات السلبية التي توحى بالميوعة والانحراف الى ضعاف النفوس من الشباب الذين يصطادون تلك الذبذبات ويبحثون عنها لتشكل فيما بعد علاقات غير شرعية تمس سلامة المجتمع ووحدته .

المغالطة الثانية : تهافت بعض المؤمنين

يتخذ بعض الناس من الممارسات الخاطئة التي يمارسها بعض المؤمنين ذريعة لتكريس مفهوم عدم التأثير لدين في صياغة وتحديد وجهة السلوك الانساني .

نحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن تلك الممارسات الخاطئة حتى وان صدرت عن افراد يعرف عنهم بالتزامهم الديني ، لان صفة التدين لاتعطي حصانة اعتبارية للملتزم بقدر مايحرص بذاته على اعتماد الدين كوسيلة لصقل وبناء الشخصية، وتهذيبها بل نتحدث عن محاولة البعض استلاب الدين وحجره في تكايا المتصوفين او كهوف الزهاد ، بسبب ممارسات خاطئة لايغني فساد الفكر الديني ، وتهافت فتاة بسبب اخطائها لايدل على عجز الدين ، فمن الخطأ ان نعرف الحق بالرجال بل علينا ان نعرف الرجال بالحق .

ان رأينا فتاة مؤمنة صالحة ذات سلوك رحيمي في اسرتها ومجتمعها فذلك يدلنا على صدق شخصيتها وروعة الفكر الذي تحمله .

لماذا اذن نتخذ من تلك الفتاة التي سقطت في وحل الرشى مثلا للدين ولم نتخذ من هذه الفتاة المحتشمة مثلا ؟

ومن ثم لماذا يشار الى المؤمن الخاطيء بالبنان فيما لايشر الى الاف الشباب غير الملتزمين بالدين ولو باشارة .

المغالطة الثالثة: ازدواجية الفكر والسلوك

كل ثقافة بناءة تدعو الى سلامة الاسرة ووحدتها وقوة المنهج واستقامته هي ثقافة نابغة من صميم الدين وان لم تكن تحمل شعار الدين، وكل ممارسة تحمل بشائر الخير والمحبة وتدعو الى الحب والالفة بين ابناء الاسرة فهي من عمق الدين ولبابها وان لم تحمل شعار الدين ، وكل فكرة توحى الى صلة الرحم وتعميق العلاقة بين الابناء والاباء فهي من رحم الدين وان كانت توصية من احدى الجامعات الغربية .

وكذلك كل دعوة تدعو الى حماية كرامة الانسان وتحقيق سعادته فهي من الدين وان لم تحمل شعار الدين ، كما ان اية ثقافة تدعو او تنتهي الى تفكيك عرى الاسرة وانهيارها فهي في حرب مع الدين ، وايضا كل ممارسة خاطئة تستهدف انحلال الفرد والاسرة فهي ممارسة جاهلية متخلفة ، وكل خطوة تدعو الى التبرج والميوعة هي على النقيض مع الدين ، وكل جهل وتخلف عن ركب العلم والحضارة هو قطار يسير باتجاه معاكس للدين .

ليس من الدين من اساء خلقه في اسرته واشاع الخوف والرعب في المجتمع ، وليس منه من ظلم زوجته في حقوقها او العكس حتى ولو ادعى كل منهما الايمان والتدين .

واخيرا وليس اخرا تبقى العفة والحشمة والحجاب آيات وسنن واخلاقيات من صميم الدين حتى وان تهافت المؤمن وسقط او تنكب في الطريق .

4 - مواكبة الموضة

حركية الزمن تلقي بضلالها كل جديد على الانسان اعتمادا على مدى قربه من المنظومة القيمية او بعده ، فكلما اقترب الانسان منها كان اقرب الى متغيرات الزمن الايجابية لينهل منها ماينفعه من عماره نفسه وأسرته ومجتمعه تاركا العناصر السلبية التي فيها هتك للقيم الدينية ، وتصدع كيان الاسرة ، وتهاوي المجتمع .

يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير. يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يتوعنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون"

26-27 سورة الأعراف

وفي قبال ذلك يكون ضحية المؤثرات السلبية اذا هرب من تلك القيم او امتطى عجلة الزمن ليحمل قسطا من سلبياتها على ظهره تاركا ما يحمله الزمن من عناصر الخير والبناء .

القيم هي المعيار الثابت ولاعلاقة لها بمتغيرات الزمن وتأثيرات الانسان ، فالكرامة والصبر والاستقامة والسعادة في زمن ادم عليه السلام هي ذات المضامين في القرن الحادي والعشرين .

الذي يتغير هو المظهر والشكل ، فاللباس الذي كان سائدا يرتديه الناس في زمن موسى ع يختلف يقينا عن اليوم ، والاسلام لايقف امام هذه الملامح المتغيرة التي يحملها الزمن للانسان اذا لم تتنافى مع الثوابت والقيم .

مايشجبه المبدأ هو هذا التسابق المريب لفتياتنا لمتابعة كل ما يحمله الزمن في عالم الازياء والتي تتجاوز بعضها الخطوط الحمراء للقيم ، أزياء تمثل مستوى هابطا يمس عفة المرأة وحشمتها وعفافها بحجة مواكبة العصر والموضة .

حتى ان البعض من رواد الخلاعة والميوعة يستنكر علينا هذا الموقف ، ويعتبر نفسه مقياسا للتقدم والعصرية والحدثة وكل موقف يعاكس اتجاهه يعد مقياسا للتخلف والرجعية والظلامية

اهمية المظهر العام للمرأة من حيث الملابس تكمن في عدة نقاط مهمة ، منها :

أولا : كانت مجتمعاتنا تتميز بالمظاهر الايجابية المتمثلة بالحشمة والحجاب باعتبارها متناغمة مع المنظومة القيمية للامة .

ماعهدناه عن مجتمعاتنا منذ زمن بعيد انها كانت متألفة ومؤمنة بالقيم ، في يوم لم يكن فيه الانتحار والتبرج والطلاق معروفا لنا ، وكنا يومئذ نكذب بالخلاعة والميوعة ، ولكن عندما اهتزت ثقة الناس بقيمها انهارت العلاقات الاجتماعية وفقدت مجتمعاتنا مناعتها الداخلية فساق الينا الزمن اعرافا ومظاهر غريبة من الخارج ، ودخلت الازياء وحل المايكرو جوب محل العباءة ، والميني جوب محل الجبة ، وباتت فتياتنا يتقلبن من زي الى اخر في زمن الفتنة ، حيث باتت الحشمة عيبا والحجاب نشازا ،حتى خرجت علينا بعض الفتيات وهن يلبسن تي شورت مكتوب عليه (I am easy- Kiss me)

ثانيا : كما تبين في مقدمات البحث ان الطريق الى مجتمع مثالي واسرة سعيدة تكمن في التمسك بالهوية والاحتفاظ بالثوابت ، اما المظاهر العامة فانها تمثل سقفا امنا لتلك الهوية ووقاء لتلك الهويات .

العقيدة لاتاتي بثمارها للفرد والمجتمع من دون معاضدة الاجواء التي تتغنى على الحان العقيدة ، وتمشي معها يدا بيد .

من هنا عندما وقعت قريش حائلة دون تطبيق شعائر الاسلام ومظاهرة قرر رسول الله ص الهجرة الى المدينة ليقيم هناك الشعائر ، وبالفعل كان اول مشاريع الرسول الاكرم ص هو بناء المسجد النبوي الشريف لتعلوا على سطحه مأذنة تبتث الروح ، وتصنع الأجواء الايمانية العذبة .

وعليه فان مظاهر الحشمة تعكس جانبا مهما من جوانب المجتمع القيمي المتماسك بمنظومته القيمية والمهدد باي منظومة اخرى يراد استنباتها باي شكل من الاشكال ، وفي ارض لم تعد على التخلي عن قيمها الموروثة والضاربة بجذورها في عمق هذه الارض حتى غدت قيمها اصعب من ان ينال منها مهما تفنن الاخر على لوي عنق التاريخ ليسير بالاتجاه الذي يريده في تكريس رؤيته وفلسفته للحياة خارج الاطار القيمي ، وبعيدا عن الدين ، ليؤصل الجانب الحيواني في الشخصية الانسانية ، وبالتالي يكون التبرج والتعري جزءا اساسيا

في المنظومة القيمية الغربية ، والتي من نتائجها التفكك الاسري والانتحار وبقية الاثار الناتجة عن فلسفة الغرب في بناء الحياة .

ثالثا : نظرتنا القيمية الى المرأة تحملنا الى الاختلاف مع الذين يدفعون بالمجتمع الى التفكك والهاوية من خلال اشاعة التبرج وصناعة الفتن .

نحن ننظر الى المرأة باعتبارها النصف الاهم من المجتمع والمعلمة الاولى ، والمربية الحنونة التي عبر عنها الرسول الاكرم ص بقوله : (الجنة تحت اقدام الامهات) اما نظرة الغرب ومؤسساته الاعلامية للمرأة ، فهي تقوم على اساس استغلال المرأة كمادة دعائية وليت ثقافة الانحلال والتبرج والتفسخ الاخلاقي ، واداة للترويج عن الرجال ، ومشروعا يدفع باتجاه الطلاق والتفكك العائلي ، عبر اخراج المرأة من وظيفتها الفطرية ومسؤوليتها داخل الاسرة في بناء الاسرة واعداد جيل المستقبل الذي سيرث عنا كل المهام المستقبلية .
انظر على سبيل المثال في إحصائياتهم بالتقرير الذي نشرته صحيفة (اللومند) الفرنسية عن وضع المرأة في الغرب والذي جاء فيه أن:
أربع أمريكيات يتعرضن للضرب كل دقيقة...
700 ألف أمريكية يُغتصبن كل عام..

مليون فرنسية يعانين من عنف الزوج يموت منهن 400 كل عام
أما تقرير منظمة العفو الدولية الصادر في شهر آذار 2004 م تحت عنوان (أوقفوا العنف ضد المرأة الأوروبية) فقد ذكر أن في الولايات المتحدة تتعرض امرأة للضرب على يد زوج أو صديق كل 15 ثانية في المتوسط
وتغتصب امرأة كل 90 ثانية، أي بمعدل (350) ألف حادثة اغتصاب سنويا.
بينما تتعرض 25 ألف امرأة سنويا للاغتصاب في فرنسا)... عن صحيفة الدستور
2004/3/7 م

رابعا : لان التبرج والميوعة والانحلال ثغرات ونقاط ضعف تهدد الكيان الاجتماعي ، فلا يمكن بناء اسرة مثالية قادرة على مقاومة تحديات الزمن الصعب .
نحن نرى اثر الازياء في زيادة حدة القلق الاجتماعي واللااستقرار الاسري ، وماتزايد نسب الطلاق في المجتمعات المعاصرة الا تأكيدا لهذه الحقيقة غير القابلة للانكار ، وكذلك الاعباء الاخرى كالكآبة والانهيارات العصبية ، وبروز حالات الانتحار التي تعتبر النصف الاهم في المجتمع الانساني .
لذلك فان الحريصين على سعادة الاسرة وسلامة المجتمع يدعون بالحاح الى اصلاح نقاط ضعف المجتمع المتمثلة في الميوعة والعري ، بنقاط قوتنا المتمثلة في العفة والحجاب كوسيلة لبناء مجتمع الفضيلة والاخلاق النبيلة .

رابعاً : الكرامة الممتحنة

الكرامة هي منح ونعم ومزايا انعم الله بها على الانسان وفضله على جميع الخلائق والكائنات .

انعم عليه بنعمة العقل ووهب له القدرة على التفكير والتمييز بين الخير والشر .

انعم عليه بنعمة الحرية والاستقلال في اختيار العقيدة وطريق الحياة .

وانعم عليه بنعمة السيادة واطلق يديه لخلافة الارض والسماء

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (الانعام 165)

وانعم عليه بنعمة الامن والسلام التي تورث الطمأنينة والسعادة وحب الحياة .

وانعم على الانسان بنعمة الزواج وتشبيد الاسرة من اجل حصانة النفس وسكونها .

ونعم اخرى كثيرة نعرفها ، واخرى نعيشها ونتذوق طعم حلاوتها من دون ان نستشعرها ، واخرى لم نتعرف بعد عليها ولم نكتشفها.

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) [النحل : 16] .

السعادة تطل على الانسان عندما يستثمر تلك النعم استثماراً صحيحاً ويستنشق من ريحها الطيب ويتمتع بها ويعيش في ظلها ، بل قيمة كل انسان وتفاضله في عزة نفسه وكرامة شخصيته .

(وَكَأَلَدَّ كَرْمًا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

الاسراء اية 70

بالكرامة يرقى الانسان الى مراتب التكامل العلمي والحضاري ، وبها تتم السيادة والاستقلال ونهضة اقتصاده وتكافله ، واذا راينا أمة بلغت مراتب العلم والحضارة والتقدم فانما كانت بعزتها وكرامتها ، وايمامة كفرت بانعم الله تعالى فأذاقها الله لباس الذل والخوف والجوع ، وطردت من مصانع التاريخ ليمسها الضياع والسقوط في احوال الجهل والامية والعقم الثقافي .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) سورة النحل 112

ولعمري هذه حالة امتنا ومجتمعاتنا بعد ان تخلت عن قيمها ومبادئها وخلعت عن نفسها لباس العزة والكرامة ، فصنعت لنفسها القيود والاعلال ونحرت استقلاليتها فتحولت من أمة إقرأ الى أمة لاتجيد القراءة وتعيش امية ثقافية ، من أمة معطاءة ومنتجة الى امة مستهلكة ، ومن امة مبدعة وخلافة الى امة متلقية ، ولتعود الامة الى المربع الاول من جديد مع كل مسيرة يراد من خلالها الخروج من الدائرة المغلقة لنظرية التخلف والتبعية .
لذلك كلما خرجت امة عن الطريق قوض الله لها رجالا صالحين يكافحون من اجل اعادة الثقة بالذات وبث الروح فيها من جديد ، ويضعون عنها اثقال الثقافات الجاهلية واعلال العبودية للشهوات .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الاعراف 157

اشكالية في الطريق

ثلثا سكان الارض يعيشون على حافة الفقر والجوع والحرمان والامية والتصحّر في ظل حكومات قمعية لاتتعاطى الا بلغة القهر والحديد والنار ، بينما يتنافس الثلث الآخر في التكامل العلمي والمدني ، ويتسابقون على عمارة الارض ، وتحت الارض وهم يفكرون لاستثمار السماء ، فما هو مغزى هذه الاشكالية ؟

ليس السبب في قلة النعم والمزايا الالهية في الارض لان الله عادل في اسباغها ، فما من دابة في الارض او الهواء او البحر الا وكانت معها مقومات الرزق والحياة بالتساوي .

(وَكَأَيِّنْ مِن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) العنكبوت 60

المشكلة تكمن في تدهور وعي الناس بتلك النعم وجهله في استثمارها ، فالكثير من المجتمعات الفقيرة كانت في يوم من الايام تعيش الغنى والثروة ، والكثير من الاراضي كانت خصبة وخضراء حتى سميت تلك التي نشهدها صحاري قاحلة في العراق بأرض السواد لشدة خضرتها ، وكثيرا من المجتمعات كانت مبدعة وخلافة في العلم والنهضة ، ومصدرا لاشعاع الفكر والثقافة الانسانية ، لتمسي هي نفسها اليوم في ظل التخلف والامية حتى اضحت نسبة الامية في بلد مسلم عريق ذات مليون نسمة اكثر من 49 بالمائة !
قد يبرر المستضعفون في الارض استضعافهم بالظلم والاستكبار العالمي وهيمنة القوى العظمى ، ويبرر الفقراء فقرهم بجذب الارض وندرة الثمرات واقلع السماء عن المطر !

مشكلة الارض والسماء والماء والهواء تكمن جميعها في الانسان الذي تخلى عن منابع العلم والقوة والثروة واثر الجهل والضعف والفقر .
تكنم في انقلاب الفقراء على العلماء الحكماء الصالحين ، وتمسكهم بعصاة وعاظ السلاطين والجبابرة والطغاة .
تكنم في اهمال المستضعف للارض وزراعتها وعمرانها ، فاجدودبت الارض ، ومات الشجر ، وهربت الطيور ، وتبخرت المياه .
تكنم في ابتعاد الناس عن الثوابت والسنن وطرق النجاة في الارض ، فابتليت بالضعف والهوان والعبودية وتسلط الاقوياء ، فما تجبر الطغاة الا بضعف الشعوب ، وما اصاب المستضعفون من استغلال للكبار الا لضعفهم وذلة انفسهم .
ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (سورة الاعراف 95)
وفي الحديث الشريف..
لتامرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر او ليول عليكم شراركم ثم تدعون فلا لا يستجاب لكم

الكرامة في اطار الاسرة

ان مفهوم الكرامة في نطاق الفرد والاسرة لا يتبعدها في ابعادها عن الكرامة على صعيد الامة ، فان اكرم الرجل زوجته انما اكرم نفسه ، واذا اهانت المرأة زوجها فانها تشربت شخصيتها على الذل والهوان .
الاب الظالم لزوجته قبل ان يتزوج قد ألف الاهانة منذ صغره ومن قبل ابويه عند كل هفوة ، وتعود جسده على الضرب من قبل المعلم في المدرسة ، وفي المحلة قد خفض جناحه للذل لمن هو اقوى منه للاهانة والركلات ، وهكذا عندما شب اقتاده رجال الامن واشبعوه ضربا لكلمة تفوه بها لاتروق مزاج الحاكم .
ماذا يمكن ان نتوقع من هكذا أب الذي ترعرع وتخرج من محيط اجتماعي قد اعتاد الاهانة والاستضعاف ؟
كم من مرة شهدنا رجلا يدلس كرامة زوجته رفسا وضربا امام الملاء ؟
وكم من مرة راينا اما تلوي ذراع ابنها او تقرص اذنيه امام مرأى ومسمع الناظرين ؟
قد نرى بعض الرجال قد ورثوا سلطة لا يملكوه ، فلا الرجولة تعطي صلاحية الاذلال والامتهان ، ولا الامومة تملك صلاحية اذلال زوجها او استعباد اولادها ، كيف نبني اسرة بثقافة سريعة الغاب ، وكيف ننشئ جيلا في ظل امتهان الكرامة وتحقير الابناء ؟
بالاضافة الى تأثير الخلفية التربوية للاباء في صياغة السياسة التربوية للأسرة ، فان الامة الثقافية والجهل بحدود العلاقة الزوجية وحقوقها وواجباتها سببا اخر للمهانة والاستغلال بين الزوجين .

عندما تحمي جبهات الحرب بين الزوجين يتجاوز الطرف الاقوى كل الحدود الاخلاقية والانسانية للطرف المستضعف الذي يتحول الى ضحية متلقية للاهانة .
ولكن سكوت الاخر وصمته لا يعني نهاية الحرب ، وريح معركة لاتعني بالضرورة ربح الحرب ، وسرعان مايجمع الطرف المقموع شتات قوته ، ويتحين الفرص للاجهاز على

غريمه ، وتوجيه ضربة قاضية للخصم يستعيد من خلالها توازنه الذي فقد في جولات سابقة للصراع .

عندما تصل العلاقة الزوجية الى هذا المستوى من التدني تتبدد معها النوايا الحسنة ، وتتحول الاسرة الى غرفة عمليات لحياكة الفتن وصناعة الازمات من اجل الايقاع بالآخر . لو قدر للزوجين المتصارعين من اعادة النظر وانهاء حالة اللاسلم فان الامتهان يترك في نفسية المتضرر اخدودا من الذكريات الاليمة التي يصعب تجاوزها ، وكما يقول الشاعر :

وجرح السيف تأسوه فيبرا وجرح الدهر ماجرح اللسان

جراحات الطعان لها إلتائم ولايلتام ما جرح اللسان

نحن هنا لانريد وضع الملح على الجرح ليزداد الماء، بل نريد تحديد موقع الجرح من اجل تفادي جراحات قادمة قد تحدث ، وتشديد اسرة بعيدة عن الامتهان ، عبر ضخ الوعي بضرورة التنعم بنعمة الزواج واستثمارها في انماء الذات وترشيد الجيل الجديد على اسس الثقة المتبادلة والاحترام والتحابب والتفاني .

اذا تحقق ذلك تنبت السعادة في ارجاء الاسرة ، وتبرز ارادة قوية للحياة تتحدى هموم المعيشة ، ومشاكل الحياة وتعقيداتها ، ونيل معالي الاهداف السامية .

على هامش امتهان الكرامة

بعد ان تعرفنا على مبدأ الكرامة الانسانية واثرها في تحديد العلاقة الزوجية تبرز الحاجة الى الحديث عن انواع الامتهانات الاسرية والنتائج التي تتمخض عنها على صعيد الفرد والاسرة والمجتمع .

فلا تعتمد هذه النتائج على شدة تعاطف الاهانة وحسب ، بل على طبيعة شخصية المتلقي والمناخ الاجتماعي كما سنبين .

العامل الاول : المناخ الاجتماعي

من الواضح ان الانسان يتلون بطبيعة المناخ الاجتماعي السائد سلبا او ايجابا ، فرب كلمة نابية في مجتمع ما تعد ممدوحة او عابرة في اخر ، وقد يكون سباب الزوجين عادة في مجتمع لا يكون كذلك في مجتمع اخر ، وقد يكون ضرب الزوج لزوجته عادة ولامكان لرجل لايجيد ضرب زوجته في ذلك المجتمع ، او قد تكون ممارسة ضرب الزوجة لزوجها عادة كما شاهدت ذلك بنفسي في بعض المجتمعات .

في مثل هكذا اجواء تقل حساسية المرأة المهانة او الرجل المستضعف لانواع الامتهان التي يتقبلها ، وربما تموت غريزة استشعار الاهانة عند الكثير من الزوجات ، ولاغرابة عندما يخرج استطلاع للرأي في الاردن بنتيجة ان اكثر من 75 بالمائة من نساء الاردن يتقبلن ضربهن من قبل الزوج .

وأغرب ما رأيت في مجتمع قروي كيف ان رجلا ضرب زوجته واذلها أيما اذلال ، وبعد دقائق قامت تلك المرأة المستضعفة بتقديم وجبة طعام لزوجها الظالم !
بطبيعة الحال ان قبول المرأة هذه او غيرها الضرب والسباب لا يبرر تلك الاهانة ، فالخطيئة في ذلك المجتمع هي خطيئة في كل المجتمعات .
وفي صورة أخرى ذكرت صحيفة "اليوم" السعودية أن رجلا سعودي لا يتجاوز 35 عاما من عمره قد تعرض إلى الضرب المبرح من قبل زوجته التي تبلغ من العمر 30 عاما بعد أن نشب خلاف عائلي بينهما ، حيث قامت الزوجة بإغلاق الأبواب على زوجها وضربه حتى أدمت وجهه .

وذكرت الصحيفة السعودية أن الزوج حاول الفرار من زوجته إلا أنها احكمت القبض عليه، وتركزت ضربات الزوجة في وجه زوجها حتى سالت من وجهه الدماء. ونجح الزوج في الاتصال بالشرطة التي حضرت إلى منزله لتتري الزوج وقد امتلأت ملبسه دماء ليقدّم شكواه ضدها، غير أن الزوجة الهائجة حاولت إكمال ضربها للزوج أمام رجال الشرطة قبل أن يقوموا بالاتصال على الهلال الأحمر الذي جاء إلى الموقع لعلاج الزوج الضحية !

فاذا سادت لغة اللامنطق واللااخلاق في مجتمع ما ، وتحولت الى ممارسات عادية وظاهرة طبيعية في المجتمع ، عند ذلك يكون الظلم والامتهان قد استشرى واصبح يجري في العروق والشرايين ، وهناك لا بد من نهضة اخلاقية جديدة تعيد التوازن من جديد ، وتحدد الواجبات والحقوق ، وترسم حدود المناطق المحرمة .

العامل الثاني : الطبيعة الشخصية

تتعدى مخاطر امتهان الزوج لزوجته او العكس حدود العلاقة الزوجية لتتطال الابناء الذين يكون تنشئتهم في ذلك المحيط حيث الثقافة التسلطية التي تجعل من فيروس الامتهان كامنا في شخصية الفتى او الفتاة الى حين انتقال كل واحد منهما الى البيت الجديد ليخرج ذلك الفيروس ويتفعل ويعيد اعراض الامتهان من جديد تبعا للصفات الشخصية والمناخ الاجتماعي للزوج والزوجة .

وقد تتدخل عوامل جديدة في تحجيم ذلك الفيروس وتحديده كعامل الثقافة والفكر الانساني الذي يعيد ترتيب الثوابت وتوطيد العلاقة مع الخالق المعبود عبر الايمان به ، واقامة الصلاة التي تهذب الروح وتصلق الشخصية ، كما وان اتباع نهج الرسول الاكرم ص في الاخلاق واهل بيته الطاهرين من شأنه رقرقة القلوب وترطيب السلوك

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ
اللَّهَ كَثِيرًا) . سورة الأحزاب 21

وقد يبقى ذلك الفيروس الاخلاقي لينتقل الى الابناء ، حاملا معه خطايا الاباء الى الابناء
ليتحمل السابقون وزر اللاحقون ، كما ورد في الحديث الشريف :

من سن سنة سيئة عليه وزررها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

انواع الالهانات داخل الاسرة

أولا : الالهانة الكلامية

لا يعد الكلام حروفا تتطاير في الجو بل هو تعبير عن ما يختلج في اغوار النفس من مشاعر ونوايا و اخلاقيات ومبادئ وثقافات تنطلق لتشكل حروفا تترتب عليها اثار حياتية واجتماعية باقية مابقي الدهر .

الكلام لا يفنى ولا يمحي ، ومامن كلمة تنطلق الا لتبقى ، وقد ياتي يوم يستطيع المرء سماع كلمات انطلقت قبل الاف السنين عبر الاثير لتصل الى اسماعنا رغم مرور هذا الزمن الطويل ، كما يطرح ذلك كنظرية علمية .

اذا كنا نرى اليوم احداثا دامية مؤسفة في مناطق المسلمين فهي تعد من اثار ونتائج الكلمات الباطلة التي انتجت فتنة سميت بحرب صفين ادت الى مقتل اكثر من عشرين الف صحابي ولازال العدد في تزايد .

أو قد نرى اثر كلمة طيبة نطق بها الرسول ص انطلقت في ارجاء الارض لتستقر في القلوب وتغير النفوس و اخلاقيات مليارات البشر منذ ذلك الحين ، من ثقافة وأد البنات الى ثقافة مودة البنات ، ومن همجية حرب الاوس والخزرج الى اخوة الاسلام ، ومن عنجهية اخلاقية الى قمم اخلاقية ، كلمات تخرج من مدرستها رجال كعلي وابي ذر وعمار وسلمان . قد تؤتي كلمة طيبة واحدة الى تشييد اجواء من المحبة والسعادة في الاسرة ، وقد تعكس كلمة خبيثة دمارا في مجتمع وانهيارا للاسرة ، ومن هنا يشير القران الكريم الى مسؤولية الكلمة بقوله تعالى

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ { [إبراهيم:24-25]

سيكولوجية الامتحان الأسري

مع ان الكلمات النابية التي تنطلق من الزوج إنما تتم عن خلفية ثقافية و اخلاقية ، فانها تعكس ايضا عن خزين من الاحتقان الداخلي ، وعجز في منطقة الوعي والمنطق في الشخصية في عدة اتجاهات منها :

• اخلاقيا ..

ليس غريبا عندما يواجه الحكيم سباب الجاهل بالصمت ، او ربما يبادله بابتسامة ، لا لانه ترفع عن هذا المستوى الضحل فحسب بل لانه لايمك في قاموسه هذه الكلمات ، ولوجود بون شاسع بين نفس زكية ونقية وذلك المستنقع الاسن الذي يتسرب منه كل قبيح . فلا نشم من زهرة القرنفل رائحة البصل ، ولاننتظر يوما ان نشم من الثوم عطر الياسمين ، ولسان العاقل غطاء لخزين من الحكمة والمنطق ، بينما لسان الجاهل غطاء لخزان من الروائح النتنة ، تنطق بالسموم والفتن وفتلات الغيبة والنميمة والسباب . العاقل يمتلك الشجاعة الكافية لايداء الراي السليم ، او مناقشة الاحداث بالحكمة والجدال الحسن او الصمت الا بالمعروف لينطق متى اراد . بينما ينفطر لسان الجاهل لينطق من دون فكر او وازع من ضمير يحركه ردود أفعال ليكون ضحية نتائج وخيمة ، كما يقول الامام الصادق ع : **كم من عقل امير عن هوى اسير .**

واخيرا فان من امتلأ قلبه بالرحمة والشفقة وتقوى الله ، ينطلق لسانه ببشائر الخير والحق حتى وان ظلم ، فالعفو والسماحة من شيم الحكماء ، لكن البعيد عن رحمة الباري عز وجل يكون قريبا من حالات التمرد والعصيان وظلم الضعفاء **عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام قال :**

لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآهل قال: يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد من أهان لي ولياً فقد بارزني باخاربة، وأنا أسرع شيء إلى نصره أوليائي . الوسائل ج/8 ص588

• ثقافيا ..

لان الثقافة تشكل المنظومة التي تقود الانسان وتوجهه فان أي فقر ثقافي او عجز في الاستيعاب ينعكس في السلوك وطريقة الكلام .
الزوج الذي يحمل ثقافة الالفة والتعايش والسلام ، بينما لاينطق ممن يحمل ثقافة استالينية بغير السباب والشتائم وقول الزور .
الكلمات النابية المبعثرة التي تنطلق باتجاه الزوج او الزوجة تعكس امية صاحبها وافلاسه ، فالمتقف يملأ داخله ويعبئه بالكلمات الطيبة والمواقف الرفيعة ، فان اختصم تكلم عدلا وحقا ، وان ظلم اثر الصمت والمكابرة على الظلم ، فقد قال رسول الله ص : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا و فليصمت .
الملاحظ ان من يمتلك الدليل والحجة لا يحتاج الى استعمال الفاظ غير لائقة مع زوجته ان اخطات ، فالخطأ لايعالج بخطأ بل بالحكمة والموعظة الحسنة .
ان مواجهة الخطأ بالخطأ يحول الاسرة الى حلبة صراع بالالسن والكلمات الجارحة التي لاتحل المشكلة بل توقع بالضحية في خطر الانهيار والسقوط في هاوية التفكك الاسري .
من التداعيات الخطيرة للامتهان الكلامي داخل الاسرة هي السقوط في منحدر الضرب واستعمال اليد كوسيلة لتعويض الفشل من تحقيق النتائج التي كان يتوخاها من الالهانة ، ومتنفسا للاحتقان الداخلي الذي يتولد من سوء اللسان .

ثانيا : الالهانة الجسدية

جبلت الطبيعة البشرية للتعامل والتعبير بالكلمات ، وشاءت ارادة الخالق ان تكون الافكار والاراء المسموعة او المقروءة او المرئية طريقا الى قلوب الناس وعقولها ، كما سخر اليديين لنعمل ونأكل بها ، والاقدام للسعي في الارض .
بيد ان عوامل كثيرة نتعرض اليها قريبا دفعت بعض الناس للخروج عن سياق الخلق (بفتح الخاء) والخلق (بضمها) مما عرضته للتية والضياع عن سواء السبيل ليستجد باساليب الامتهان النفسي والجسدي واستعمال قوة اليديين او الرجلين كوسيلة للتعبير .
البطش والعنجهية لاتنسجم مع الطبيعة البشرية ولا الحيوانية لانها تؤدي الى نتائج عكسية وخيمة على جميع الاصعدة فرديا واسريا ومجتمعا ، ثقافيا واقتصاديا وحضاريا ، وباعتقادنا ان معيار الرقي الحضاري للانسان هو بمقدار الابتعاد عن لغة العنف كوسيلة للتفاهم .
من خلال الوقائع نرى ان الامتهان الجسدي سواء من قبل الزوج للزوجة وهو المعتاد ، او من الآباء للابناء يؤدي يقينا الى حرق المراحل باتجاه التفكك الاسري وتحديد الطلاق ، وان الارقام الرسمية تشير الى ان 88 بالمائة من العوائل التي ابتليت بالطلاق كانت بسبب الالهانة الجسدية بالضرب والتعذيب الجسدي الشائع في كثير من الاسر في مجتمعاتنا وحتى الغربية منها .

من دوافع الامتهان الجسدي

اولا : رجال .. بلا رجولة

تتكئ طرفا العلاقة الزوجية على اساس انسجام وتعانق الصفات الذاتية للزوج والزوجة ، فليس كل من نراه من الرجال يحملون العناصر الرئيسية لشخصية الرجل ، وان هناك الكثير ممن نرى أشباها للرجال ، وكذلك ليس كل من نراها من النساء يحملن العناصر الاساسية لشخصية المرأة ، بل هناك الكثير ممن يحملن قوالب ظاهرها صور النساء ، اما داخلها فارغ كالتبل لاعاطفة فيها ولاروح .

المشاكل الزوجية تحدث نتيجة للافلاس والفراغ الذاتي لأحد الزوجين او كليهما ، عجز في ادوة التعامل المنطقية وافلاس للرأي والفكر الصائب ، مما يؤدي الى اللجوء لعناصر القوة الوهمية كالكلام غير المسؤول والتعذيب الجسدي وممارسة العنف .

قد تكون الزوجة قد حققت بناءها الذاتي وبلغت مراتب النساء ، لكنها لسوء الاختيار حطت رحالها في بيت عجز الزوج من بلوغ مرتبة الرجولة التي تتضمن منظومة الصفات الانسانية المشتركة ، فضلا عن صفات الرجولة كالحكمة والمروءة والشهامة والكرم وغيرها ، فهو بدلا من الوقوف على نقاط العجز في شخصيته والسعي وراء لملمة الابعاد الضعيفة وتقويتها ، اتجه للتعامل مع الزوجة في عناصر هي بالنسبة الى كثير من الرجال عناصر ضعف ، وفي الحقيقة هي عناصر قوة في المرأة كالرقة والعاطفة ، ومستخدما عناصر هي في تصور كثير من الرجال عناصر قوة بينما هي في الحقيقة عناصر ضعف وجهل بالقوة العضلية .

الازواج الذين يمتلكون صفات متكاملة يتعاملون في حياتهم الزوجية ، مستخدمين قوة المنطق لاقوة البدن ، وحكمة القلب لاتهور العنف ، ولكننا نشاهد تعاظم مضطرد في ظاهرة الامتهان والتعذيب الجسدي في مجامعاتنا ، الامر الذي يعكس حجم الهوة العميقة بين واقع الانسان وصورته الخارجية في حين لم تكن هذه الممارسات في سالف الزمن الا احداثا فردية هنا وهناك لم تبلغ حد وصفها بالظاهرة .

ثانيا : رجال . . بلا مبادئ

الناس في قضية المبادئ نوعان ، نوع يحمل المبدأ من اجل ان يستتير بهديه ، ويستظل بنوره ، كالذي يضع السراج امامه في درب مظلم ، ونوع يستغل المبدأ ويجعل منه وسيلة لنيل المصالح واكتساب المهارات والفنون لبلوغ المطامع ، كمن يجعل السراج خلف ظهره في درب مظلم ليسقط في كل حفرة ، وكلما مشى ازداد بعدا عن المبدأ ، هؤلاء هم بعض الرجال في عالمنا ممن يتقمص دور أصحاب المثل والمبادئ ويطعن فيها بأشكال مختلفة .

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ص : من جعل القرآن امامه قاده الى الجنة ، ومن جعل القرآن خلفه ساقه الى النار .

مشكلة الامتهان الجسدي تتحدر من الازدواجية في سلوكيات هؤلاء الرجال وهم يتناقضون مع المبدأ ، ففي حين يدعو المبدأ الى تكريم المرأة والأم ويوصي بالرفق والرحمة بها ، نراهم يتعاملون معها بفضاضة ، في حين أن المرأة في نظر المبادئ السامية ريحانة وليست بقهرمانه كما ورد عن الامام علي ع (لا تملك المرأة من أمرها ماجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليس قهرمانه)، أي المرأة ريحانة وزهرة تعطر المجتمع بعطر الرياحين والزهور .

ثالثا : رجال .. بلا رحمة

الزواج مؤسسة لتشييد اولى لبنات المجتمع قرنت باذن الله وسنة رسوله ص بعاملين هما المودة والرحمة ، فبالمودة تباشر العلاقات بداياتها ، وبالرحمة تستمر وتنتعش ، فلا نحصل على التراحم والتعاطف من دون اعلان الرجل الحب على زوجته ، او اعلانها على زوجها .

ولكن ماذا يحدث لو ملئ قلب الزوج او الزوجة عنفا وشدة بسبب عوامل التربية والبيئة ، فهل للقلب الذي لم ير نور الرحمة ان يرحم ؟ وهل للقلب الذي امتلأ حقدا ان يحب ؟ هذه صورة اشعاعية لحال بعض الرجال الذين امتدت ايديهم على زوجاتهم بالتعذيب والامتهان الجسدي .

ومن سخرية الاقدار ان هؤلاء الذين ظلموا يحصدون ما عملوا ولو بعد حين ، فعندما يوهن العظم ويملأ الرأس شيئا تقوض الاقدار ابناء الظالمين لظلم آباءهم او ليودعوا بهذا الاب في دور العجزة في احسن الاحوال .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ (38) سورة المدثر

وينقل احد المطلعين بانه راي شابا يصفع والده المسن ، يقول هرعت لاضرب ذلك الشاب واوقفه عند حده لكن الأب امسك بيدي قائلاً: لاتتعب نفسك لانني ضربت ابي قبل ثلاثين عاما في نفس هذا المكان ، وقد اعادها الله لي بصفعة مماثلة !
بالاضافة الى ذلك فان الذين يمارسون الامتهان الاسري انما يدقون مسمارا في نعش الاسرة ويعجلوا من نهايتها وانهارها .

تبرير غير منطقي

يبير بعض المتورطين في الامتهان الجسدي لزوجاتهم بفشل كل الوسائل الاخرى للتعامل مع الزوجة ، فكيف ننصح حينما لاينفع النصح ؟

قد لاتستجيب الزوجة المهانة برد فعل معاكس كأعلان حالة الهجر او التمرد على الزوج ، لكن هذا الصمت يعني ان هذه المرأة قد توطنت على الذل والعبودية ، وفقدت الاحساس للامتهان بعد ان سلبت ارادتها وكرامتها ..
ولكن أي جيل يتخرج من مدرسة هذه الام ؟
وبماذا تغذي اولادها في غير الذل والهزيمة ؟
قد تملك تلك الام خزينا هائلا من الصبر والحكمة تقودها الى التخطيط لانقاذ زوجها من الافلاس الاخلاقي وانتشال بيتها من الانهيار ، وهنا نقف اجلالا لها ونشد على سواعدها التي اثرت مصلحة الاسرة وبقاءها ، ولكن ماذا يحل بهذا الرجل ان عجزت الزوجة عن اصلاحه ، وماذا سيخسر الزوج اذا انهارت الزوجة وتوقفت عن تدفق الحكمة ؟
اخيرا فان الامتهان الكلامي والجسدي يعد امتهانا لكرامة الزوجة وانعكاسا لفشل ذريع في شخصية الرجل ، ودفع باتجاه تصدع الكيان الاسري ومن ثم انهياره ، ويكون احد الاسباب الرئيسية للطلاق .

من ملامح التفكك الاسري..

ثالثاً:

تجميد العلاقة الزوجية

الهجر .. قطع الوصال .. وتجميد العلاقة الزوجية قرار مر يراد منه تحقيق امر صعب فشل الزوجان في تحقيقه ، وتستهدف اعادة ترتيب الاوراق المبعثرة وتأديب او معاقبة الطرف الاخر وهي الاكثر شيوعا في مجتمعاتنا بسبب ماألت اليه من انحدار للثقافة الاجتماعية ونزيف العقل .

العلاقة الزوجية تدخل في دائرة العلاقات المقدسة التي لايمكن ان يعبث فيها الانسان ، كعلاقته مع الابوين ، وعلاقته مع اولاده ، فاما امساك بمعروف أو تسريح باحسان . لايد لهذه العلاقة من الاستمرار في الحركة والتفاعل كما يجري الدم في العروق ليصل الى كافة مفاصل الجسم ، وانتهاء بالشعيرات الدموية الدقيقة تحت القدم ، وخلف قاع العين ، فمتى توقف استمرار وصول الدم الى أي جزء من الجسم يموت ذلك الجزء ، وقد تلحقه بقية اجزاء الجسد ان توقفت الحياة واستمرارية الحركة في جزء ضروري ومفصلي من الجسد .

حيوية وفاعلية العلاقة الزوجية منوطة باستمرار التفاعل فيها ، والا فالهجر كغيره من وسائل الامتهان تترك آثارا لايمحيها الزمن في شخصية كلا الزوجين على جميع الاصعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل .

آثار الهجر

أولا : سجناء في قصر الزوجية

الهدف الاساس من مشروع الزواج هو اطلاق الامكانيات الايجابية لتأخذ دورها في بناء الاسرة وعمارمة المجتمع ، وتفريغ الشحنات السلبية عن طريق اشباع الغرائز النفسية والجنسية .

ولأن الهجر يوقف عجلة الحياة الزوجية عن الحركة ، فان محطات التزود بالوقود والطاقة الحيوية هي الاخرى تنفذ ، والذي لايتزود بالطاقة يعجز عن العطاء فيتحول الزوجين كلاهما او احدهما الى اموات سريريا او هياكل جسدية خالية من الروح ، ومن الحياة على عدة اصعدة منها:

* داخليا .. بغض النظر عن المستوى التعليمي او الشخصي والاخلاقي للاباء ، فلا يبتعد الابناء عن دائرة توجيه الالباء واشرافهم توجيهيا لاعدادهم علميا ومهنيا ، واشرافا على سلوكهم الاخلاقي والنفسي .

ففي حالات الاستقرار الاسري يتوزع اهتمام الالباء عادة للابناء في كافة الاتجاهات ، لكن الامر لا يبدو كذلك عندما يدخل الالباء طور الهجر والمقاطعة فسرعان ما يسعى الابوان لسحب الابناء الى جبهة النزاع ليتحول البيت الواحد الى فريقين او اكثر . ونتيجة لانهايار الادارة يسعى الابناء لاستثمار حالة الخصام من اجل جني المكاسب وربح قرارات ربما لاتكون سليمة ، والحصول على امتيازات مضرة ، فالرحلة التي كانت ممنوعة ايام صفاء العلاقة الزوجية هي ليست هكذا اليوم ، والممارسة الاخلاقية المحظورة لم تعد هكذا مع انشغال الابوين بصراعاتهما ، وهكذا بالنسبة لامور عديدة اخرى .

في مثل هذا الوضع نجد ان مهمة الالباء تختزل في الصراع الدائر بينهم على حساب توجيه وترشيد وتربية الابناء ، ليتحول الالباء الى اجساد بلا تأثير وبلا روح ، ليكونوا كالموتى سريريا .

- معيشيا .. بعد ان اضعف الهجر همته واتعبه الصمتت وارهقته حالة الوحدة ، ينتاب الزوج شعورا بالخيبة او لا ، وخوار في همته ، وشلل في اندفاعه للعمل والتكسب ثانيا ، وينتابه شعورا سلبيا خطيرا وهو يناجي نفسه لمن أعمل ، ولمن أكافح ، وقد أوصدت الابواب في وجهه ، وامانتت الوحدة ابتسامته .
- هنا يحكى ان عامل بناء كان ذا همة عالية ونشاطا فريدا من نوعه رغم كبر سنه ، وعندما تحقق اقراانه عن سر هذه الطاقة التي يحملها ، عرفوا ان السبب هو المعيشة الهانئة في الاسرة ، وعلاقته المتينة مع زوجته ، وبعد فترة عندما وجد رفاقه منفذا الى قلب زوجته عبر دس فتنة واكذوبة تشكك في ولائه واخلاصه لها ، ماهي الا ايام الا وقد تغير الرجل الكبير وخارت عزمته وانهارت قواه لتضع نهاية لاسطورته !
- هكذا يفعل الهجر بالعطاء والابداع ، وتحول الاسرة الى اجساد بلا روح

- اجتماعيا .. لا تنحصر اشاعات السعادة الزوجية في اطار الاسرة ، بل تخترق جدران البيت وتتجاوز كل الاطر والحجب لتشمل من حولها من رفاق الزقاق واصدقاء العمل وذوي القربى ، وتمتد ايديهم بالعطف على ضعاف النفوس والمساكين ، وتشع بالرحمة والمودة لكل من تلقاه ، ومثل هذه الاسرة السعيدة في المجتمع الكبير كشجرة طيبة ، تؤتي اكلها كل حين باذن ربها، ليؤكل من ثمرها المبارك، ويشم ريحها الطيب كل مؤمن وفاجر ، وسعيد او شقي .
- بيد ان الهجر وحجر العلاقة بين الزوجين لا يؤدي الى انهيار البنين الداخلي من القواعد فحسب ، بل تؤدي الى جذب العلاقات الاجتماعية وتوقف التفاعل الايجابي معها ، ومثل هذه الاسرة في المجتمع كشجرة ميتة تساقطت اوراقها ، لاتغني ولا تثمر ، وهي بفعل الهجر اعلان لموت خلية من خلايا المجتمع الكبير .

ثالثا : ازواج محبطون

يحمل الزوجان قبل ورودهما العش الذهبي اطيافا حية ، جميلة ، واحلاما ووردية تنسج من وحي الخيال بعيدة في كثير من الاحيان عن الواقعية .
وسرعان ما يرتطم الحالمان بركام من الصخور تتلاشى عندها الكثير من تلك الخيالات ، وتتساقط الاوراق التي كانت تنستر عن العيوب .
وفي هذه اللحظات المصيرية تنفدح في ذهن الزوجين ثلاثة احتمالات تحدد طبيعة العلاقة الزوجية ومستقبلها .

الاحتمال الاول ..

تكشف الاسرة الجديدة بان حكاياتهم السابقة قد نسجت بخيوط العنكبوت ، من وحي الاوهام ، وقد تبخرت عند هبوط مركبتهم الارض ليبدأ الزوجان بقفزة نوعية من النضج والعقلانية كقيلة ببناء اسرة سعيدة ملؤها الحب والحنان والرحمة .
وفي هذا الاحتمال يسمو الزوجان الى قناعة بان الواقع اذا احكمت خطواته يكون اجمل بكثير من الاحلام التي تمر مر السحاب .

الاحتمال الثاني ..

قد يعجز بعض الأزواج في التمييز بين الحقيقة والخيال ، بين الاحلام الوردية والوقائع الجديدة ، فعندما يعيشوا تلك الاحلام ، ويتعلقوا باغصان الخيال فانهم يسقطون في حياض المشاكل الحياتية والمعوقات المعيشية التي تستنزف طاقتهم وتستهلكك ايامهم بالقال والقليل او الصمت والهجر .

وعندما يتحكمان العقل والحكمة يخرج الزوجان من بؤرة الهجر ليعيشا على اطلال
الحب والمودة ، والندم على مافات من ايام قضيت بالاقاويل او الصمت من دون ان
يتنعموا بنعمة الحياة الطيبة .

قد يعودا تارة اخرى عند عثرة حياتية جديدة الى اوهام الماضي ويبدءا مسيرة
جديدة في عالم الاحباط والصمت والهجر .

.. الاحتمال الثالث ..

قد تبقى الاحلام والاوهام متعلقة في اذهان الزوجين من دون الوصول الى قناعة
بضرورة الاحتكاك بالواقع اعتقادا منهما بان الحياة الزوجية مفروشة بالزهور دائما باعتبار ان
الزوج هو ذلك الفارس الذي يمتطي حصانه الابيض لايتقوه الا باحاديث الغزل وأشعار الحب
، وكلما دخل عليها البيت كان يحمل باقة من الورد يقدمها منحنيا الى حبيبته !
وان الزوجة هي تلك الفتاة التي تنتظر حبيبها على قارعة الطريق لتستقبل حبيبها بباقة من
الريحان متزينة باجمل الالوان ، مرتدية ثيابا وردية تظهر كل محاسنها ، لاينبت من فمها الا
بفارس احلامي وبقية عمري .

من حق الزوجين ان يعيشا تلك الصورة الجميلة ، ولكن حذاري من أن تتحول تلك الصورة
الى قالب ثابت ، فالحياة لاتخلوا من حكايات ومصاعب قد تعكر احيانا من صفو الحياة .
قد ينسى الزوج احيانا كثيرة بان للزوجة مسؤوليات كثيرة تفوق مسؤوليات الرجل في
اغلب الاحيان ، بتحملها اعباء التربية ، واعداد الطعام وترتيب المنزل و .. مسؤوليات تشغلها
احيانا الاسراع للباب لاستقبال فارس احلامها الذي قد لايعكس بالضرورة تلك الصورة التي
كانت في خيال الزوجة ايام الخطوبة .

هنا يبدء الزوج غالبا بالشعور بالاحباط والنظر الى زوجته من زاوية التقصير باعتبارها قد
اخلفت بتلك الوعود الوردية التي كانت تنشدها في الايام الخالية ، وقد تطعن الزوجة زوجها
بعدم الاخلاص والحب كما كان ولم يبق لها الفرس ولا الفارس .

تزداد حدة الاحباط عندما ترد الزوجة احباط الزوج بصاعين ، صاع الهجر وصاع
التقصير في ادارة شؤون المنزل ، ومالم يحتكم الزوجان الى الرشد والتعقل تبقى اسرتهم في
دوامة القلق والاحباط الى حين تفتتها وانهارها .

رابعا : أعواد نخل خاوية

المودة والرحمة والتربية الصالحة ، والكلمة الطيبة والحكمة ، صور جميلة تبثها الاسرة
السعيدة رسمت بريشة المبدع وأهديت للانسانية .
بيد ان مشيئة البشر شاءت ان لاتكون الاسرة الا بئرا معطلا وقصرا مشيدا ، لاتبث غير
صور الهجر والنزاع والقال والقييل واولادا غير صالحين .
شاءت الارادة الالهية ان تحتكم الاسرة الى القول السليم ، والحكمة السديدة وهجر الذنوب
والصمت عن اللغو والامتهان ، لكن ارادة البشر شاءت هجر التفاعل الايجابي والصمت عن
الحوار البناء واللجوء الى اضعف الوسائل لحل المشاكل .

هنا تظهر على السطح حالة جديدة قوامها:

أ - يدخل الزوجان عش الزوجية المقدسة وهما يحملان طاقات ايجابية جبارة تمكنهما من تشييد اجمل اسرة واحلى حياة ، لكن الحلول الفاشلة تستهلك الكثير من تلك الطاقات ، مثلما تفرغ البطارية من الشحنات الكهربائية ، وكلما طال امد الخلاف والهجر كلما استنزفت الطاقة بشكل اكبر لتحول الرجل الى جسد بلا روح ، والزوجة الى ام بلا عاطفة ، والاثنان كأعواد نخل خاوية .
كم من أب استسلم وسط الطريق لانه لم يبق عنده مايقدم لابناءه ، زكم من اعتزلت التربية وتوجيه الاولاد لتسلم دور الامور الى جهاز الحاسوب .

ب - لانتوقف المشكلة عند استهلاك الزوجين للطاقات الايجابية بل تتجاوز الى مرحلة اخطر في سوسيولوجية الانهيار الاسري تتمثل بمحاولات املاء الفراغ الحاصل عن طريق استلهاهم الطاقات السلبية التي تكمن في ثقافة الهدم واخلاق السوء .
لقد راينا كيف تورطت بعض الاسر في الهجر ، حيث خرجت بتصورات جديدة عن الاسرة والعلاقة الزوجية ، بعد ان كانت باقات من المفاهيم القائمة على اساس الحب والمودة والعطاء والانسانية وانتهت الى السقوط في تصورات مشبعة بالسلبيات عمادها اليأس والاحباط والنظرة المادية البحتة للرباط الزوجي المقدس .
لو انها استشرفت المستقبل لما تعاملت على اساس ردود الافعال او تخلت عن الثوابت المقدسة ، فبعد ان يفرغ الهجر خزين الاسرة من مصادر قوتها المتمثلة بطاقتها الايجابية فانها تسعى الى املاء الفراغ بخزان من الاوهام والمشاكل والفتن لتمسي هذه الاسرة بلا رصيد تحمل على كاهلها ثقل الهموم والمتاعب .

ج - الاسرة التي تشبعت بالشحنات السلبية اثر استنزافها للطاقات الايجابية والحيوية البناءة تصاب بالقحط والجذب والتوقف عن المبادرة والعطاء ، وتصاب الزوجة بالصدمة من هول النتائج غير المتوقعة من سياسة الهجر .
هنا تكمن اخر فرصة للمساعي الحميدة بان تتقدم لمد هذه الاسرة وزخها بجرعات من الشحنات الايجابية قبل ان يستسلم الزوجان لمزيد من الانهيارات الاسرية ، او قبل ان يتجذر النزاع ويتحول الى بغض وحقد لاسامح الله بين الزوجين ، قد يحفر في الوجدان اثارا يصعب ازالتها .

قد تكون الحكمة والموعظة الحسنة دواء لداء الامتهان الكلامي او الجسدي ، ولكن بعد ان تنتقل الكلمات الى لكمات بالايحاء والتلقين والاشارات القلبية السلبية فان النزاع ينتقل من القشرة الخارجية للبنية التحتية في كيان الاسرة الى النواة الداخلية له ، ليحتل البغض مقام الحب ، والحقد محل الرحمة ، فنتصدع الاساسات الكونكريتية للبناء الاسري ، وتتشقق الجدران والسقوف منتظرا عاصفة جديدة ليخر البناء من القواعد وينتهي كل شئ .

ملاحج التفكك الاسري

رابعاً :

الخيانة الزوجية ..

احد اخطر المعاول التي تفتت الهيكل الاجتماعي وتهدد استقراره وثباته ، وبالتالي يفل من عضد الاسرة هو البحث عن منابع وهمية جديدة غير سليمة لاستلهاام المودة والحب خارج نطاق الاسرة تعوض عن عما فقده الزوج او الزوجة من رعاية وعطف داخل الاسرة . نحن لانبتغي من وراء بحثنا هذا ايجاد المبررات لهذا السلوك ، بل نسعى لسير غور هذه الحالة المرضية ، وتشخيص سبل العلاج الكافي لها ، وهي محاولة متواضعة نسعى من خلالها استيحاء سيكولوجية الازواج الذين يتطلعون لاشباع غراهم بطريقة غير مشروعة ، والاخذ بايديهم الى طريق الرشذ بالحكمة وبعقلانية وواقعية .

- **بواقعية ..** أي نحدد بشجاعة مكامن الخطأ في سلوك الزوجين ونحاكم المسؤول عن ذلك الخطأ .
- **بحكمة ..** أي نستشرف النتائج المستقبلية للمشكلة الاجتماعية على مستوى الفرد و الاسرة بشكل عام .
- **وبعقلانية ..** عبر تحليل الجذور البعيدة لهذه الحالة ، تلك التي يغفل عن قراءتها المهتمين بالشان الاجتماعي .

هل هي حالة ام ظاهرة ؟

بالرغم من خطورة الخيانة الزوجية واثرها البالغ في التفكك الاسري الا انها لازالت تمارس كحالات فردية شاذة هنا وهناك ، لم تتحول الى ظاهرة بفضل القيود والحدود المهمة التي غرست في ضمير الانسان المسلم اينما كان ، على العكس من مجتمعات غربية كثيرة تعتبر فيها الخيانة الزوجية الظاهرة رقم واحد ، لذلك فاننا نعبر عنها في بحثنا بحالة معينة ومحددة .

هذه القراءة لاتقلل من خطورة الامر ، بل بالعكس لان حدوثها ونموها في مجتمعاتنا بالرغم من تلك القيود والثوابت المتجذرة في سلوك الانسان المسلم يعتبر خرقا فاضحا لنمط السلوك ، ويعبر عن ازمة خطيرة في الفكر والمعتقد .
ان لجوء من لديه معتقد ما لهكذا سلوك يعتبر في نظر علماء النفس الاجتماعي مرضا ، لكنه في نظر الذي يحملون عقيدة ونظاما كالاسلام يعتبر جرما فاضحا وذنب كبير .

ملاحظات اساسية ..

أولا : الخيانة اولها نظرة ..

خارجا عن اطار النظرة الاخوية الصادقة الخالية من التمنيات المشبوهة ، فان النظرة تعتبر الخطوة الاولى في درب الخيانة الزوجية .
اذا راجعنا بعض الدراسات الاجتماعية المهمة بتحليل هذه الحالة نراها قد اخفقت بعد جهود مضيئة مستتجة باسباب ثانوية قد تساهم احيانا في تاجيح الرغبات الدافعة لها من دون وضع اليد على الجذور الرئيسية التي ساقطت الى الخيانة ، كالرفاه المعيشي ، والمستوى التعليمي ، والموروثات الاجتماعية ، وهي بلا شك عوامل مساعدة ، لكنها لاتشكل الباعث الاساس لهذه الحالة ، لالجهل هؤلاء الباحثين او غفلتهم بل لتغافلهم وتجاهلهم للحديث عن الجذور التي ترتبط بالمثل والقيم والمبادئ الاخلاقية لشخصية الزوج او الزوجة .

نحن اذ نسعى للبحث عن الاسلوب الانجع لمعالجة الحالة نرى انفسنا ملزمين ان نضع العراقيل امام البوابة الرئيسية التي تنطلق منها هذه الجريمة ، كي تكون الانطلاقة الى مسيرة الاصلاح انطلاقة سليمة وهي بمثابة الوقاية التي هي خير من العلاج .
النظرة المشبوهة ليست كما تشاع يتيمة او بريئة ، بل سرعان ماتتولد عنها اشارات ذهنية تتجمع في العقل الباطن لتمزق نسيج البراءة والعفة التي تحصن الانسان من الانجراف نحو خطوات الضلال .

هذا التطور يسوق الزوج المتعطش الى مزيد من الخطوات النفسية التي تؤسس لبناء قاعدة الانطلاق نحو الخيانة الزوجية ، وترسم صورة لتلك الفتاة داخل النفس تحول تدريجيا الى حالة وواقع ، وتكون قرين للنفس ورفيق الطريق ، يعبر عنها القران الكريم بالهوى .
واخيرا وليس اخرا فان النظرة تلوث الروح الانسانية التي اريد لها ان تكون صافية خالية من الشوائب ، وتربة طيبة لاتتبت فيها الا العلاقة الزوجية المقدسة ، واي زرع دون ذلك يكون هشيما تذر الرياح وتتقاذفه الايام .

قال تعالى في معرض تحيره للنظرة الثانية (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) [النور:30]

ثانيا - اليوم نظرة .. وغدا موعد

من الثابت ان كل الصور والافكار والكلمات التي يستقبلها الانسان عبر جوارحه لاتطير في الهواء بل تستقر في النفس مجسدة رؤى وثقافة ومواقف الانسان العملية .
النظرة المختلطة مع الريبة والشبهة لامرأة اجنبية تتحول الى سلوك مشبوه مريب بعد ان تستقر في النفس ، عكس النظرة الودودة التي ينظرها الزوج لزوجته ، فانها تعكس سلوكا رحما طيبا .
النظرة المشبوهة اذا لم تلق ردعا نفسيا داخليا فانها لاتتوقف عند لغة الصمت بل تتطور الى سلوك مشبوه عبر التجاذب المشترك والتجرؤ لحوار مشترك مع تلك المرأة الاجنبية .
فبعد ان كانت تلك المرأة اسطورة داخل النفس ووهم في خيال فأذا بها تتحول الى حقيقة وواقع جديد ، في الامس كانت نظرة مشبوهة واليوم موعد مع المجهول وهدم للاسرة .

ثالثا - خراب الروح ..

استقرار السلوك وامنه منوط بالامن والاستقرار الروحي ، منه تنطلق المودة والرحمة ، ومنه يبعث الامن .

شاءت حكمة الباري ان تكون هذه الروح صادقة وشفافة كي يتسنى لها ان تحب وتتودد بصدق ، فالروح الصادقة التي يحملها الزوج بين جنبيه تبعث الى اولاده وزجته بنسيم الحب والرحمة ، اما الروح المشوبة بالقلق والولاءات المتعددة فانها لاتبعث الا الى النفاق والمراوغة .

النظر يخرب السلوك عبر خراب الروح ، واذا خربت روح الرجل انهار صرح الاسرة وتصدعت اركانها .

يقوم الدكتور حسين الراشدي استشاري جراحة العظام في المستشفى التخصصي بريدة القصيم — السعودية فإنها تكون بمثابة الزناد الذي تبدأ بسببه سلسلة من التفاعلات والإفرازات الهرمونية الجنسية المعقدة التي لها تأثيراتها على كل عضو بل كل خلية في الجسم، والتي تهئ الجسم والأعضاء الجنسية لعملية الاتصال الجنسي لتأدية مهمتها في استمرار النسل ولكن كلما طال وجود ودوران هذه الهرمونات في الجسم كلما ازدادَ الهدم والدمار الذي تسببه وكأنها وجدت لتدوم أقصر وقتٍ ممكن،

جذور في الأعماق

تطلع الزوج الى امراة اخرى هي حالة مرضية تعود الى جذور عديدة في اعماق النفس ونتيجة طبيعية لعوامل تشكل الارضية الخصبة لهذه الحالة ، ومن اهمها الاتي :

أولا - ونسوا الله ..

السلطة الالهية الجبارة تعد منطلقات العدالة في سبيل استقامة الحياة الانسانية وتوجيهها نحو شاطئ الامن والسعادة .

تختلف هذه السلطة مع السلطات الدنيوية ، لان الثانية تعمل بقوة الردع القانوني ، وقانونية الردع ، اما السلطة الالهية فانها تعمل بشكل مغاير تماما ، فهي تسعى لزرع مضادات حيوية داخل شخصية الانسان ، وتثبت منبهات تشير الى عقبات الطريق وتندثر الانسان قبل وقوع الخطر .

لقد اودع الله تعالى هذه السلطة الداخلية في كل الكائنات الحية نرى بعضها بوضوح في الخطوات الاحترافية التي تتخذها بعض النباتات والحيوانات في مواجهة التهديدات .

بيد ان هذه السلطة سرعان ماتتأثر وتتغير تبعا للارادة التي يحملها الانسان ، فقد تقهر هذه السلطة وتنهار فيمسي الانسان هزيلا ضعيفا راکعا امام مغريات الدنيا وزخرفها ، لاستقرار لارادته ولاثبات لقلبه ، وكلما رأى امرأة فاتتة خرج قلبه من جسده ليلحق اثرها ، حتى اذا مرت اخرى اجمل يعود ليتراکض خلف الثانية .

ان قويت تلك السلطة الربانية في داخل النفس الانسانية فان ارادة الانسان هي تقوى ايضا ، وقد تغدو اقوى من الجبال لاتزعزعها العواطف ولاتقلها المغريات ، قلبه مستقر في جوفه ، وحبه وولائه ثابت لزوجته ، وكلما رأى امرأة حسناء نكس رأسه حياء ووفاء لزوجته ، وتسامت روحه شموخا .

بالاضافة الى تأثير الارادة في تحديد قوة السلطة الداخلية للانسان او ضعفها فان الارتباط الروحي مع الله سبحانه وتعالى يعد عاملا اساسيا لحصانة الانسان وحمایته من الانفلات نحو هاوية الانحراف والرذيلة فمتى نسي الانسان ربه تمسي قدرته وسلطته هزيلة ، تسقط في اول مواجهة مع مغريات الحياة ويتعطل جهاز المناعة ، وتتخبط اجهزة الانذار ، ويتيه جهاز الرادار عن رصد الاخطار المحدقة بالانسان .

(وَكَأ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) سورة الحشر 19

مانتقدم هو باختصار فلسفة الانحراف عند البشر وهو عين مانراه من تهاوي مجتمعات بعد ان كانت عزيزة ، وانهيال دول كانت قوية بمعنوياتها ، وانجراف اناس كانوا مثالا للمتانة والصلابة بسبب نسيان الله وغفلة رب الاسرة عن الله ، ونسيان المتقفين والمفكرين لديهم ، فاصبح الناس غثاء كغثاء السيل كما يقول امير المؤمنين علي (ع) .

ماقات كان احد اهم الاسباب التي تضعف ارادة الأزواج وتدفعهم الى الخيانة الزوجية والبحث عن بدائل غير سوية لاشباع غرائزهم الحيوانية من دون رادع من ضمير او وازع من ارادة .

من هنا لايمكن ان نتصور رب اسرة دائم الذكر لربه ويخشاه في الغيب ان يتجرأ لممارسة الحرام او حتى ينظر الى ماحرمه الله .

ثانيا - واعتقلوا الدين ..

بعد ان اعتقلت فطرة الانسان وأودعت في غياهب السجون ، وأبعد الدين عن مسرح الحياة ، وتسمنت العادات والمبادئ الجاهلية قيادة المجتمع البشري ، لم يبق للانسان مايعصمه عن السقوط في الرذيلة او يرشده الى طريق الرشاد .

مما زاد الطين بلة التداعيات المتلاحقة على الاسرة من ضنك العيش وضغوط السياسات ومطاردة الامراض وفتك الحروب .

في ظل هذه الحالة لم يبق للأسرة من يعصمها ويشد من عضدها او يهديها في ظلمات الطريق ومصاعب الحياة ، فاصيبت بالوهن والمرض ولم تتحمل الوقوف امام ابسط التحديات ، فنرى اسرة تتعالى عندها الصرخات او الركلات بسبب اكلة ، واخرى انهارت ووصلت الى حافة الطلاق بسبب الخلاف على مطرب ، واخرى انهارت بسبب موقف من مسلسل تلفزيوني كما شاهده شخصيا في احدى محاولتنا لفك نزاع اسري ، بينما نرى كيف كانت الاسرة متماسكة رغم حرمانها من ابسط وسائل الراحة ، حتى اذا حدثت مشكلة اسرية وعظم على العقلاء تقويمها فان ابواب الاسرة تغلق على حكم الله كما فتحت عليه من دون ان يشهر الزوج سيف شهواته ليتحدى حدود الله ويخون زوجته .

بعد ان غاب الدين وظهرت تداعيات العولمة ضعفت مقاومة الاسرة امام مغريات الحياة ، واستسلمت امام المشاكل التافهة التي غلبت ارادة الكثير من الاسر الاماندر.

فاذا غاب المنطق عن شخصية الزوج او الزوجة فمن يعصم الاسرة من السقوط والزلل ؟
واذا ضاعت الحكمة عن شخصية المرأة فمن يحصنها من اثار هذه المسلسلات الهابطة
التي جنت على بيوتنا؟
واذا اعتقل الدين وهو المنقذ الوحيد للبشرية من الانحطاط ، فمن ينقذ الاسرة من السقوط
في شباك الشيطان ؟

ثالثا - وضاعت الثقافة ..

الثقافة هي كلمة (مشتقة من الكلمة اللاتينية *كلتشر* / *cultura* وهي تعني مفاهيم ورؤى ترتبط بسلوك الانسان مباشرة في السياسة والمال ، ومفاهيم الرفض والقبول للاخر ورؤية الانسان الاخلاقية في تعامله مع الاسرة والمجتمع ، ونظرته للدين والاخرة .
فالثقافة النابعة من رسالة الله والمتناغمة مع الفطرة تقود الانسان نحو التكامل والتقدم ، وبناء امة وتشبيد حضارة على هدي الشريعة السمحاء ، والثقافة النابعة من المدرسة الداروينية والفرويدية والوجودية الاخرى فأنها تعكس وجهة نظر تتفق مع ماتؤمن به وتسوق الى أصحابها التحلل والميوعة وفصل المجتمع والاسرة والسياسة والدنيا عن الدين .
من هنا اذا اطلت علينا اسرة سعيدة يسودها الحب والحوار والعطاء فان الثقافة السائدة فيها هي ثقافة البناء والتقدم ، ومتى مارينا تساقط بعض الناس عند ابسط عقبات الحياة او تتأثر البعض للارض والمادة ، ومتى راينا تهافت الناس على الفئات وهرعهم للوقوف من اول الليل وحتى الصباح من اجل شراء بطاقة لمشاهدة مطرب ما ، متى رأينا تلكم الحالات فلنعلم بان الثقافة الرسالية قد هربت حياء وخجلا وحل محلها ثقافة الهدم واليأس وسوء الخلق .
لسنا هنا بصدد بحث جذور ثقافة الهدم السائدة في كثير من مجتمعاتنا وبيوتنا بل هي محاولة للاشارة الى ان هذه الثقافة قد جنت على الامة بسبب تخليها عن ثقافة البناء ، فيوم ودع الناس الحوار الاسري سادت الانانية والفردية ، ويوم فقدنا الامل والثقة بأنفسنا حصدنا اليأس

والاحباط ، ويوم طلقنا جوهر الدين لم يبق لدينا الا طقوس الدين وقشوره ، ويوم ادار الناس وجوههم للعادات والاعراف العتيقة الطيبة غزتنا عادات وتقاليد جاهلية محمولة عبر الاطباق الفضائية اللاقطة ، و يوم اعتزلت الام طهي الطعام والطبخ الممتزج بروحها وطيبها وحنانها طرق الباب العم دونالد او البيتراهات وجئ معه الجفاء والخسة وعقوق الابناء وسوء الخلق . في الوقت الذي تتعالى فيه صيحات عقلاء المجتمعات الغربية ومنظروها للعودة الى الذات والمنزل والقيم والمبادئ السامية ، نرى اصرار بعض مجتمعاتنا وبيوتنا للمضي عكس عقارب الساعة ، وللسير بالضد من الفطرة والدين وثقافة البناء والتقدم .

من الخطأ ان نعلن الحرب على الاخر الذي غزى بيوتنا ، واشبع عقولنا قبل ان ندعو انفسنا للعودة الى الثقافة الرسالية التي ضاعت من ايدينا يوم سباتنا وغفلتنا ، ويوم غفلنا عنها انهارت القاعدة القيمة للزوج او الزوجة ، ولم تبق لنا قوة تعصمنا من مشاكل الحياة فانهارت الزوجة .

رابعا : واغلت المنازل ..

المنزل هذا الحرم المقدس الذي يضم بين دفتيه الزوجين والاولاد يعد بيتا من بيوت الله عندما يتم تطهيره من الاثام او العادات السيئة ، او يكون بيتا من بيوت العنكبوت اذا ماتخيلنا عن الحب والالفة والحوار ، وحاكت اناملنا المعاصي والفتن ، بيتا لاقيمومة فيه للاب ، ولامكان فيه للام ، ولادور فيه للاولاد .

المنزل يعد المحطة الاولى التي تنطلق بالزوجين لتشييد الاسرة السعيدة وتربية الابناء الصالحين ، وهي تمتاز بعدة مزايا اذا ما اقترنت بها الاسرة صارت بيوتنا بحق جنة من جنان الله في الارض والا فانها تكون حفرة من حفر النيران .

مفهوم المنزل ..

ان الاوان لتحديد المعنى الذي اسس عليه مفهوم المنزل باعتباره سقفا وجدراننا وابوابا واثانا واعادة اقرار ان القيمة المقدسة للمنزل انما هي للنازلين فيه من اولاد وابوين ومن خصهم بقرابة .

فاذا كانت قيمة المنزل برأسمالها وأثاثها وديكورها فانها لاتعد الا متاحف يستأنس بها المارة او فندق خمسة نجوم للنازلين فيه ، حينئذ ضاع اهلوها وفقدت الموبيليا والاثاث جمالها ولم يعد للمنظر الخارجي من قيمة تذكر ، وقد يتحول المنزل الذي يحتوي على اثاث متواضعة وديكور غير لائق الى جنة بربرة اذا سعد اهله واستقر كيانه .
لذا نرى انفسنا ملزمين لبيان دعائم المنزل السعيد من جديد من اجل ان نزيل الغبار عن القيمة الحقيقية للمنزل ، تلك التي غفل الناس عنها ، فاصيبوا بانتكاسات في الحياة على كل الاصعدة ومن تلك الدعائم مايلى:

أولا : الأم الملكة ..

للام دور الملكة في الاسرة بما لها من سيادة وسلطة تنفيذية كاملة ، واي انتقاص لسلطتها يعرض الاسرة بشكل جدي لانتكاسات تهدد سلامة الاسرة ومستقبلها ، وتعرض سلطة الاب للضعف والخور ، ولعل من صفات هذه الملكة :

أ - ظهيرا للرجل ..

مهما أوتي الرجل من قوة وصلابة فانه يستلهم سلطته التشريعية من الدعم المعنوي الذي تقدمها الملكة ، فهي السند الاقوى والظهير الالهم ، بدليل اننا لانتمكن من تأسيس اسرة سعيدة من رجل حكيم رشيد وامراة تخلت عن ادوارها كأم ومربية وملكة ، بينما نرى اسر كثيرة تشق طريقها وسط الزحام الى التكامل والعلو ، وعلى الاسرة امراة معطاءة واب لاحكمة له ولارشاد .

الأم التي اعتزلت ممارسة سلطتها التنفيذية من تربية وتغذية وتركيزه واعداد فان اسرتها تنهار من قواعدها من دون ان يستطيع الاب مهما أوتي من حكمة ورشد ان يشغل محل الام . ونحن هنا نتحدث عن مثالية دور الأم ومكانتها بشرط ان يفي الاب بدوره ومسؤوليته ، ليكمل البناء الاسري على اتم الوجوه ، ولكن اذا اهملت الزوجة زوجها وانشغلت باولادها النزلاء الجدد ، وقفزت على حاجات الرجل الغريزية ، او انشغلت عن ممارسة ادوارها بمشاهدة محطات التلفزة او المكالمات الهاتفية المملة ، فانها لاتستقيل عن عرشها كملكة وحسب ، بل تضعف من دور الأب وتكيل من شخصيته وقوته ، هذا في حال استقامة الاب ومصداقيته ، اما اذا افتقر الى المبادئ والقيم النبيلة فان الزوجة تدفعه للنظر الى خارج حرم الاسرة ، والانزلاق نحو مهبط الخيانة الزوجية .

ب - الأم المزكية ..

احد اهم المراتب التي تتشرف بها الام هي تركية الروح ، وتطهير النفس ، وتنقية الداخل في شخصية اولادها جنبا الى جنب الانبياء (ع) الذين خصهم الله بهذا الدور ، فلا توجيه ولا تعليم ان لم تسبقها صياغة الروح المعنوية للطفل الذي دخل من بوابة الحياة .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا 9-10 سورة الشمس

لقد تورط الغرب والكثير من المؤسسات التربوية عندما تم القفز على مراحل اشباع الروح والتوجيه المعنوي للطفل قبل مرحلة التعليم ودفع الثمن غالبا عبر اجيال عديدة تخرجت من الجامعات بكفاءات علمية رفيعة لكنها تعاني من الافلاس المعنوي وتفقر الى الروح الجماعية وحب الانسانية ونبذ الشر وتقديس الخير .

الامر الذي جعل الناس يندفعون لامتحان العلم من اجل المال وليس من اجل خدمة البشرية ، وتحول العلم من خلال مجالات التطوير الذي شهده الى اداة استعمارية لقهو الشعوب الاخرى واخضاع الطبيعة للارادة الانسانية عبر تدميرها ، وتحول الانسان في ظل المنحى الغربي للتطور العلمي من غاية الى وسيلة ، والى ترس في آلة كبيرة ، يدفع حتى الانسان ضريبة ذلك من وجوده وكيانه الروحي عبر مايسمى باعباء الحضارة والتقدم .

لقد تحول العلم الى وسيلة تجارية لابتنزاز اموال الناس وامتصاص قوتهم فان نفدت فامتصاص دماءهم وحصد ارواحهم وقتل اطفالهم ، وتحولت شركات صناعة الادوية مثلا الى مافيا يقودها علماء واطباء باعوا ضمائرهم وهم يساهمون في نشر فيروسات خطيرة كحقوق تجارب لاختبار ادوية او وسائل لسيطرة معينة .

ناهيك عن المؤسسات التجارية الضخمة التي يقودها علماء نفس واجتماع من اجل الدعاية والترويج لامتصاص قوت الناس واموالهم بكل دهاء وحيلة .

ومرورا بالاجهزة العلمية المختصة في صناعة الراي العام التي توجه الناس للابتعاد عن التدخل في السياسة او شؤون البلاد ، وهكذا تحولت اجيال عديدة تمتهن العلم وتسييس المعرفة وتتحين الفرص من اجل تحقيق مصالح تجارية بحتة .

بالنتيجة تم تدجين القطاع الاكبر من الناس كي يدور في حلقات وهمية لينال منه الاستريس Stress والامراض النفسية والعصبية ، ويقود هذا التيار فئة قليلة من الخبراء والعلماء الذين حولوا الانسان هذا الكائن العملاق الى قطع غيار ترقد في ماكنة العولمة .

مشكلة العصر بدأت عندما تخلت الام في عالمنا عن دورها في امتصاص الصفات السلبية الاخلاقية والنفسية المغروسة في ذات الانسان كالانانية وحب اللذة والحسد والعدوان والاستئثار ، وتبديلها الى صفات ايجابية كالايثار وحب الآخر ، والتعلق بالله تعالى ، والشجاعة والثقة بالنفس والوعي والابداع .. الخ من صفات اخلاقية ونفسية تشكل القاعدة الخفية لشخصية الانسان ، وعندما تتخلى الام عن هذا الدور الذي نقصد فيه بالتركيز يدفع ثمنه الابوان اولا قبل ان ينال المجتمع نصيبا منه ، وذلك كمشكلة عقوق الابناء مثلا .

ماذا يقدم الانسان ويعطي لابويه اذا حرم من حنان وعطف ورعاية ؟
وماذا تتوقع الام من ابناءها الذين ترسخت في شخصيتهم الانانية وترعرت فيها حب الدنيا ؟
وماذا يجني مجتمعا تخرج ابناءه من بيوت خالية من ذكر الله والرسول والعمل الصالح ؟

ج - الأم المربية ..

فطريا و غريزيا فوض البارى تعالى مهمة التربية للام ، حيث تتساق الام انسجاما مع كينونتها لمهام تربية الابناء وترشيدهم الى العمل الصالح عبر التركيزية وتكريس القيم الاصلية في ذوات الابناء ، فالام احدى رسل الله تعالى من دوم نص وعصمة ، لانها تقوم بنفس الدور الذي يقوم به الرسل (ع) في ارساء التعاليم لدى الناس ، او تكون احدى رسل الشيطان بنص منه وحماية اذا سعت الى تربية اولادها على الفسق والبغاء والفجور وزرعت فيهم البغض والحقد والحسد والانانية .

وبذلك فان الام اما ان تكون رسولة السماء عمليا ووظيفيا ، او رسولة ابليس ، فاذا تخلت عن رسالة الله ومبادئه فانها سقطت لامحالة في الامتحان ، وكانت في شرك ابليس وحزبه . وبالتالي فانا ان راينا اولادا صالحين نشير بالبينان اولا الى تلك الام الصالحة التي تخرج من مدرستها ويشد من متانة هذه المدرسة اذا كان الاب في الصالحين الحكماء . هذه الحقيقة اثبتتها مجتمعات كثيرة استيقظت بعد ان تحول المنزل الى فندق ، والاولاد الى نزلاء ، لتكون الام موظفة ريسبشن .

فمن للاولاد اذا كانت الام تعمل من الصباح الباكر الى المساء لتتسابق مع الرجل في الكسب ؟

ومن يربي الاولاد ان تخلت الام عن وظيفة التربية والارشاد ، وانشغلت في مشاهدة المسلسلات التلفزيونية التي ملأت ساعات الليل والنهار ؟
ومن لا اولادنا اذا اودعت الام اولادها في دور الحضانة من السنة الاولى او الثانية لتتلقفها موظفات همهن تسكين لوعة الطفل باللعب او النوم او اشغاله بالرسم والطعام ؟
لاستقيم الاسرة ان تخلت الام عن امومتها ، ولا تعني الامومة شيئا اذا انقطعت عن التوجيه والتربية وتهذيب الروح وهندسة مستقبل الابناء ، وليس هناك ضمان بعدم تفتت الاسرة وانهارها ان لم تساهم الام في تخريج اولاد صالحين الى المجتمع وهم يحملون راية البناء والتقدم .

ويبقى السؤال ماذا يبقى للام ان تخلت عن الامومة والتربية والتوجيه ؟

ج - الام المعدّة ..

لايكتمل بناء الجنة التي وعد بها الله الام من دون الاعداد الجسمي والمادي للطفل ، والاهتمام به غذائيا ، وليت الامر يتوقف على الاعداد المادي وحسب ، بل للغذاء تأثير بالغ على الروح والجسد ، وما يؤكد هذا التلازم القول المشهور العقل السليم في الجسم السليم . هذه الحقيقة لطالما غفل عنها دعاة العولمة ، ومشت في دربها مجتمعات الغرب وتلقفتها الامهات في الشرق ، حقيقة الاكل الجاهز والوجبات السريعة التي الغت المطبخ وهيمنت على بيوتنا .

لايعمر أي بيت ولايستقيم من دون وجبات الطعام التي تعدها الام بنفسها بما تحمل تلك النفس العظيمة من عطف وحنان ومحبة وايمان بالله تعالى ، فتلقمه في افواه اولادها ليتشربوا من ذلك الايمان وينهلوا من ينبوع الحب والحنان ، ويعرفوا من معين عطفها ورحمتها ، فتجذر في دمائهم وتبنى بها خلايا اجسادهم وتتهندس محاور افكارهم وثقافتهم فيكونوا امتدادا لامهاتهم بما تحمل من حسنات وطيبات ، فتكون الجنة حينئذ تحت اقدام تلك الام .

لقد تنبأ الكثير من الخبراء في دول الغرب مجددا الى دور الطعام في صياغة شخصية

الانسان بمقولتهم الشهيرة (انت ماتأكله) 'you are what you eat' .

إذا اغلقت الام ابواب مطبخها ، وفتحت الباب للبورغر كينك Burger king او الماك دونالد Mcdonalds والبيتزا هات Pizza hatt وغيرها فعليها ان لا تتفاجأ يوما ان رأيت شخصية اولادها وزوجها كشخصية وصورة صاحب البيتزا في زقاقهم ، و اخلاقهم كاخلاق الشيف العامل في مطابخ البرغر كينك ، وليس لها ان تلقي باللائمة على الاب او الشارع او المدرسة اذا تخلى عنها اولادها وتمردوا على توجيهاتها حيث اضحوا اولادا لصاحب البركر كينك .

وليس لها ان تندب الزمن اذا تشرب حب زوجها وخلايا مخه ودمه واحاسيسه باحاسيس و اخلاق الطباخة التي تطبخ لها الطعام في المنزل او من المطعم المجاور لهم ، وليس لها ان تنتكر لخطأها الفضيع اذا ساهم احاسيس ومشاعر الطباخ في صناعة احاسيسها وجسدها وعقلها ! هذه ليست من وحي الخيال او من افلام الخيال الهوليودي وانما حقيقة مرة لا بد من الالتفات اليها والقبول بها ، فهذا الطعام الذي صنعه امي وسكنت فيه من روحها هي التي صاغت روحي وجسدي ، وهذا الطعام والشراب الذي تعده زوجتك لك هي التي تصيغ جسمك وعقلك ، فلننظر الى اية صورة وشخصية نريد والى اية روح وعاطفة نحبذ ؟ الى صورة شخصية الطباخ الذي صنع الطعام الجاهز لنا ام الى صورة وشخصية تلك الزوجة الطيبة او الام الحنونة ؟

وقد قال تعالى في كتابه الكريم وهو يدعونا الى أهمية اختيار ما نتناوله.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. 24 سورة عبس

أبنائنا الى اين ؟

عندما تحول اهتمام الزوجين الى صورة المنزل وهندسته وترتيب الجدران والاثاث ونوع التلفاز ضاع اهتمامهم بأنفسهم كذوات انسانية تحتاج الى عملية صقل وتركيبية وتربوية ، والى بناء ثقافي وانماء روحي ، عندها صار الجميع اجسادا بلا ارواح تهزهم اتفه المشاهد ، وتورقهم ابسط المشاكل ، وتؤثر على شخصيتهم كل شئ حتى طبيعة الطقس ! فماذا نتوقع من هذين الابوين ان يقدموا لاولادهم ؟ من يضمن لهذين الابوين ان لا يتناولوا اللسان البذئ او الجدل العقيم او التفكك والطلاق وانهيار الاسرة من قواعدها ؟

من ملامح التفكك الاسري..

خامسا ..

وضاع الاولاد

تمهيد

بغض النظر عن صيغة التعامل الحياتي بين الزوجين ، فان اثارها لا تتوقف عند حدود الاباء بل للابناء نصيبا مماكسب الاباء .

فكل امتهان للكرامة من قبل احد الزوجين للاخر يتبعه بالضرورة امتهان للكرامة من قبل الابناء تجاه الابوين ، واي اجترار للاب لممارسة الفساد او الانحراف ينعكس على الاولاد ليتمموا مبادئ الاب من مشوار الفساد ، وكذلك ان تخلى الابوان عن اعتماد سياسة التوادد والتراحم والاحترام بينهما فانه ينسحب بشكل طبيعي الى الاولاد ليقابلوا ذلك الجفاء وتلك القسوة بجفاء مثله وقسوة مثلها ، ذلك لان الاولاد هم تحصيل حاصل ونتاج ماكان عليه الابوين من خير او شر .

من هنا فان ضياع الابناء وتمردهم على سلطة الابوين او خروجهم عن طاعتها وعن دائرة القيم والمبادئ والاعراف وارتماؤهم في احوال الرذيلة والفساد ، او الادمان والانتحار ، او

العزوف عن الزواج ، او التغرب الثقافي والديني ، كلها ظواهر او نتائج لجذور كانت هناك قد نبتت من رحم الزوجين ، تلك الخلية الاجتماعية الاولى .
هذه الظواهر جميعها تعبر عن ازمة في العلاقة الزوجية السوية ، وحالة من التصحر في منظومتها القيمية .

نحن هنا بصدد البحث عن جذور هذه الظاهرة التي اتخذت اشكالا متعددة وليست ثوبا واحدا كعقوق الابناء ، والانحراف الاخلاقي والعزوبية ، كل على حدة املين ان نتوقف لاعداد دراسة تحليلية مستقلة اخرى ، ومنه نستمد العون .

أولا : ظاهرة عقوق الابناء ..

تحديد العلة الاولى لعقوق الابناء وارجاء الامر الى تقصير او قصور الاباء لايسقط مسؤولية الابناء عن جانب من هذا العوق الاخلاقي ، فكل انسان مسؤول عن ماكسبت يده سواء كان ذلك الكسب موروثا كالبخل والجبن ، او مكتسبا كسوء الخلق ..

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُثِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .15. الاحقاق

عندما نشير الى العلة الاولى للعقوق فذلك لكي ينهض الاباء بتحمل مسؤولياتهم واصلاح مافسد من ممارساتهم كي يتوقفوا عن امداد الابناء بما يكرهون ، او يزرعوا مالايشتهون .

إذا ورث الابناء عن ابائهم مرضا عضويا او صفة اخلاقية سيئة فهذا لا يبرئ ساحة الابن من السعي للعلاج من المرض ، وكذلك فان مسؤولية الاب لاصلاح ما فسد منه او من اجل كبح جماح نفسه الامارة بالسوء لاتغني عن مسؤولية ابنه الذي ورث البخل مثلا .
ومن اهم العوامل التي تساهم في ايجاد هذه الظاهرة الخطرة :

أ - القابلية للفساد ..

كل انسان يحمل بين جوانحه دوافع تقوده الى الخير والصلاح ، صوت ينادي حي على خير العمل ، ودعوة الى الفطرة وكتاب الله وسنة رسوله وحسن الخلق والوفاء وصلة الرحم للابوين ..
او دوافع تقوده الى الشر والرذيلة ، و صوت ينادي من اعماق قلبه ، ودعوة الى نبذ الفطرة وتجميد كتاب الله على الرفوف واحالة السنة النبوية الى التقاعد ، وتكريس حب الذات والانانية والراحة على حساب الاخرين .
وتبقى تلك الدوافع راقدة في اعماق النفس كمنار تحت الرماد تنتظر من يذكىها لتتحول الى بركان يقذف الحمم والنيران ليحرق من حوله ، ويبيد الحرث والنسل ان عاش في ظل تربية تدعو الى الانانية ، او قد تتحول الى نور تهدي من حولها الى طريق الحب والخير والعمل الصالح ومساعدة الفقراء وصلة الرحم اذا ساقها ابوين صالحين اوقدوا في الابن نور الهداية والصلاح ، و اخدموا فيه نيران البغض وحمم الحقد والحسد والانانية .
اذا مشى الانسان في حياته مع اصدقاء السوء ولبس رداء الجبن والخوف وملاً بطنه من مال الحرام واكل الحرام كانت النتيجة تكريس الفساد في الاسرة والمجتمع وسوء الخلق وقطع الارحام .

من هنا فان قطع الارحام نتيجة لاتقاد دوافع الشر وصوت الشيطان في النفس ، كما انه لو سار في الطريق مع اصدقاء الخير واجواء صالحة ، وارتدى لباس الرحمة والحب ، وحمل ثقافة الايمان والبناء والخير تتفتح في نفسه براعم الروح والريحان واشجار تؤتي اكلها كل حين باذن ربها فتكون النتيجة سلوكا طيبا وعملا صالحا .
من يمشي في طريق الخير والصلاح لا يجد صعوبة في نفسه لتقبل الخير وصلة الرحم وحسن الخلق ، لان بذورها متوقدة في ذاته ، كما لا يجد غرابة وفضاضة في تقبل عقوق الاباء وسوء الخلق من مشى في دروب الظلام حيث اطفئ دوافع النور في ذاته واشعل نيرانها .

كل انسان يحمل في ذاته القابلية للفساد ، وكما يقول العالم الفرنسي الشهير لويس باستور **Louis Pasteur** بان البكتريا موجودة في كل مكان، في الهواء والماء والطعام تنشط وتتمو عندما تحط رحالها على شخص له القابلية الخصبة لتقبلها فيصيبه المرض .
الابناء الذين تنمو في انفسهم الانانية والحسد وحب الذات يكونوا من حاملي فايروس عقوق الوالدين تبقى عالقة في شخصيتهم ماداموا بحاجة الى ابائهم عاطفيا وماديا ، حتى اذا سارت بهم الايام الى الاكتفاء الذاتي والغنى تفنق فيهم فايروس العقوق ليتحول الى سلوك و ظاهرة اسمها عقوق الوالدين ، وقد يبقى هذا الفايروس راقدا طيلة حياة ذلك الشخص بسبب ديمومة الحاجة الى هذين الابوين وتعلق مصيره بمصيرهم او قد يموت هذا الفايروس والى الابد عند الاولاد الذين تشربت انفسهم على الوفاء والاخلاص والحب سواء احتاجوا الى ابائهم او استغنوا عنهم على حد سواء .

فمثلما الاباء مسؤولون عن مراقبة سلوكيات ابنائهم وتزكية ارواحهم ، فان الابناء هم ايضا مسؤولون عن مراقبة انفسهم ومحاسبتها وترويضها على التقوى كي تبقى النفس مستقرة في سموها لاتخر الى الارض لتردى ، وتطمح للوصول الى المستوى الذي يقول عنها البارى عز وجل بالنفس الراضية المطمئنة .

ب - الأجواء الداعمة ..

في عصور مضت كان تأثير الاباء اكثر بكثير مما هو عليه الان ، بل وخرجت الفلسفات الجديدة للمدينة بنبذ هذا التأثير لانه تأثير قيمي وديني واخلاقي ، وهو مايسموه حاليا بالمجتمع الابوي او البطريركي ، حيث يكون دور الاب الامر والناهي دور كبير في العائلة ، على عكس النظريات الجديدة التي تطمح الى تقليص هذا الدور الى اكبر حد ممكن حتى ولو جاء على حساب الكيان الاسري الذي ياخذ بالتصدع عندما تنفث عنه سلطة الاب والتي هي سلطة اخلاقية ودينية بالدرجة الاولى كما قلنا ، ولكن بروز مصطلحات من قبيل التفسير الذكوري ونبذ هذا التفسير هو الذي دفع التيارات الحداثوية ودعاة العولمة يكرسون الواقع الجديد في الحياة المعاصرة .

كان الاباء سابقا موقعهم لايجارى باي موقع اخر ، وكان الابناء يستمدون من الاباء الطاقة المعنوية والحكمة وتستمر الموالاة والطاعة ، وتدوم العلاقة المقدسة مهما حملت الايام من متغيرات وظروف جديدة .

بيد ان المتغيرات المدنية الجدة لم تحافظ على هذه القدسية والموالاة كما كانت سابقا ، وثمة مؤثرات جديدة ملحة دخلت حياة الناس نازعت سلطة الابوين في ابنائهم ، وزحزحت ولآءات الابناء منها العولمة بالياتها ومتطلباتها التي حولت العالم الى قرية كونية باجهزة الاتصال والبت الرقمي والانترنت والقنوات الفضائية .

هذه الولاءات ادخلت الانسان في سباق مع الزمن لبلوغ غايات كثيرة مشوبة بالترف والتفاهة في بعض الاحيان كالعاب النيئتندووانواع الموبايل والجات في النت مع اشخاص مجهولين ، ومعدات العولمة الاخرى لتي ساهمت في سرقة الابناء من بيوتهم ، واودعتهم في احضان مجتمع لاندرى الى اين يسير !

مما يزيد الطين بلة انه اذا كانت الأجواء السائدة في البيت قائمة على الخلافات الزوجية وازمة الحوار والتفاهم ، او اذا احيط بالابناء اجواء اجتماعية اعتادت على عقوق الابناء وثقافة الميوعة والانحلال فانها تساهم في ابعاد الابناء عن الاسرة ، وبناء بدائل وجسور من العلاقات الجديدة القائمة خارج اطار الاسرة .

ففي ظل ازمة القناعات في شخصية الابناء وتعاضم الاجواء الداعمة للخروج من البيت وهيمنة العولمة التي ساخت المجتمع من مبادئه ، وابتعدت الايمان والعبادات التي صارت حبيسة المساجد ، واخرس حتى صوت الاذان من على المآذن ، وقد تلتقت الابناء رياض الاطفال من السنة الثانية من العمر لتستلمهم المدارس فيما بعد والخالية والبعيدة عن ذكر الله ، وجامعات صار المنكر فيها معروفا والمعروف منكلات !

ج - أوامر متفككة ..

إذا اتكأت العلاقة الزوجية على قواعد راسخة من القيم والمبادئ والعاطفة والروح فإنها تكاد تكون علاقة مؤثرة في نفوس الأبناء تبعث على الثقة والحب المشترك ، وقد تتزعزع عند الظروف السلبية الضاغطة ، لكنها ماتلبث ان تعود الى قرارها عند اقرب محطة استراحة او استرخاء ، او تتذبذب عند اشتداد التوترات الاسرية ثم يعود الوئام ولو بعد حين . التماسك الزوجي يعد عاملا جوهريا في متانة العلاقة بين الابناء والاباء ، وليست القسوة كما يدعي بعض الكُتاب ، وهذا مالا نراه اليوم ، حيث ان العلاقة بين الاباء والابناء هيمنت عليها المقاييس المادية والمصالح الضيقة بعدما غاب عنها الحب والروح والقيم ، واضحى الاب في زماننا موظفا في غرفة الحسابات عمله الرئيسي يقتصر على صرف المستحقات المالية ، وتوفير ما يحتاج اليه الابناء من دون تدبر او اشراك الاولاد في تقاسم الهموم ، والدعوة الى الفئاعة التي هي كنز لا يفنى .

بذلك تحولت الاسرة الى مؤسسة استهلاكية وليست منتجة ، متلقية لا مبدعة ، وتحول الاب من رب الاسرة الى جيب مفتوح على الدوام .

متى ما انقطع الاب عن البذل بسبب الظروف او التقاعد لم يبق له وسيلة لقيادة الاسرة وادارة شؤونها ، وما حاجة الاولاد الى موظف حسابات لا يملك رصيذا؟

ثانيا : الانحراف الأخلاقي ..

لاشك ان الاسلام مبادئ و سنن ومناهج جاء بها رسول الله ص لاتمام وتكامل حركة الوعي والنضج الانساني بما تصب في خير الانسان وصلاح المجتمع .

خير الانسان وصلاحه يكمن في اتباع نهج اخلاقي ، واذا كان الاسلام رسالة اخلاقية فان خير الانسان وسلامته لا تكون الا في التخلق والتمسك بقيم الاسلام العليا .

اذا استوعبنا هذه الحقيقة فاننا ندرك بان تكامل الانسان ورفيقه ، وسلامة الاسرة وحصانتها ، وتقدم الامة ونهضتها تكمن في اتباع اخلاق الرسول ص وعندها نتيقن ان سر الانحطاط الاخلاقي في المسيرة البشرية بما فيه من تفكك لعرى الاسرة في عصرنا الراهن ، وفشل الانسان في التصدي الجذري لمشاكل الحياة وعقباتها ، وسقوط الحضارات واندحارها تكمن في انحرافها عن النهج الاخلاقي السليم .

ففي يوم كانت الاخلاق سيد سلوك المسلمين ، ووصلت راية الاسلام الى اوروبا غربا والى الصين شرقا ، لتتعم الانسانية باسهامات الحضارة الاسلامية التي كانت تعيش عصرها الذهبي عندما كان الغرب يعيش عصورا مظلمة في ظل الحكم الكنسي ، ومنذ ان ابتعد المسلمون عن المسالك الاخلاقية فقد خرج الاسلام من قلوبنا وسلوكنا وصرنا غناء كغناء

السليل ، ثرواتهم مسروقة ، سيادتهم مهدورة ، يسودهم الجهل والامية ، وتتفشى فيهم اقصى حالات التفكك والانقسام ، وكانت للأسرة كفل من ذلك الانحراف لينعكس على ابناءنا ويصيبهم ماصاب الامة .
كمحاولة لاعادة ترتيب اوراق الاسرة المبعثرة لابد من دراسة اسباب التردى الاخلاقي عند الاولاد كخطوة الى الوراء تسبقها خطوات الى الامام ...

أ - فشل التوجيه التربوي ..

التربية هي عملية قولبة وصياغة لشخصية الطفل وفق منظومة قيمية يؤمن بها الابوان تمكنه من ادراك تلك القيم واستيعابها لتتحول فيما بعد الى ملكات تلون تلك الشخصية وتميزه بها .

بغض النظر عن المنظومة القيمية التي توجه الابوين ، فان اساليب التربية والقولبة لاقتل اهمية عن القيم ذاتها ، اذا لم نقل قد تكون اهم من حيث الصوابية والصلاحية فرب فكرة غير سليمة ولكنها تحظى بادوات انتشار افضل فتتحول الفكرة الى فكرة صالحة للانتشار على عكس الفكرة الصحيحة والصائبة التي فقدت اساليب الانتشار في الطريق ، فضلا عن ان الاساليب يجب ان تكون من سنخ تلك القيم .

اذا كان اسلوب التوجيه قائما على الترهيب والقسر والامر المفروض من الاعلى الى الادنى ، وليس عن طريق الاقناع ، فان استقبال الاولاد لتلك القيم لا تتجاوز الهامش ، ولا تتغلغل الى اعماق النفس ، ولا تتعدى الجوارح .

حتى ولو لبس الاولاد جلباب القيم الواردة اليهم وان شئت المفروضة عليهم ، فان ايمانهم ايمان خوف من العصى اورغبة في الجزر، وما يلبثوا حتى ينقلبوا على تلك القيم عند اول محطة يستقل فيها الاولاد عن هيمنة الاباء وسلطتهم القاهرة ، ويرتموا في احضان ثقافة وقيم معاكسة ، لانهم ببساطة لم يتذوقوا حلاوة الايمان والقيم الاخلاقية الاسلامية السامية ، ولم يستوعبوا اهميتها وضرورتها في الحفاظ على سلامة وحيوية الروح والجسد على السواء ، ودور الايمان في سعادة البال وطمأنينة النفس ، رأوا جانبا من الاسلام كالفرائض والعبادات ولم يبصروا هدي الحقوق التي لديه على ابويه والمجتمع والحاكم ، وكذلك حقوقه في التمتع بالدنيا وزينتها و في الحرية والاختيار .

قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة
كذلك نفضل الآيات لقوم يعلمون . ((32) الاعراف

ومن هنا يدعو الله تعالى نبيه المصطفى (ص) على تقديم اساليب الاقناع والحوار على اساليب الجبر والاكراه التي قطع برفضها ونفيها بقوله تعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي } (البقرة:256)

وتقديم القيم الاسلامية على مائدة الحوار الطيب والاقناع والبيان لافرضية الحتمية التاريخية ،
باسلوب الاحتكام الى العقل والعلم والمصلحة الانسانية لابعنوان الولاية القهرية
اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَادِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(125) النحل

الابناء الذين تورطوا بسوء الخلق وتمردوا على سلطة الاباء وقيادتها ، وخرجوا من دائرة
القيم والمبادئ انما هم ضحايا سوء التوجيه التربوي وقصور في مناهج التربية سواء في
الاسرة او المدرسة ، وتقصير من حملة الدين واخفاقهم في التسويق الديني وتقديم القيم الدينية
العليا باساليب علمية وتقنية عالية ، والاستفادة من تجارب النبي الاكرم ص والامام علي ع
وبقية ائمة ال البيت ع والرجال العظماء الذين خبروا اساليب الاقناع والتغيير الصحيح للأفراد
والمجتمع ، وتمكنوا من استيعاب الشريعة بمقاصدها واهدافها ، وليس الجمود امام النص
الديني والتفوق فيه ، دون مبارحة المكان الذي هو فيه .

من آيات الذكر الحكيم نجد الباربي تعالى يدعو نبيه الاكرم ص الى هندسة الاساليب بما
تتناغم مع النفس بانسيابية وتدرج ، حتى تختمر الرسالة في الذهن ويقتنع الناس بها او لا قبل
ان يوغلوا في عمق الدين ، ويمارسوا الاسلام عن عقيدة وايمان ، اذ تقول الاية الكريمة
(ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله ياذنه وسراجا منيرا) 45-46 سورة الاحزاب
يبتدئ فيها بمرحلة الشهادة ، فيكون الرسول ص شاهدا باخلاقه ومواقفه الرسالية حتى
قالت عنه قريش (الصادق الامين) ، فاتبعه الناس وعشقه حتى قبل ان يبعث بالرسالة ، ثم
مرحلة التبشير بنتائج الايمان بالرسالة كالحرية والامن والسلام في الدنيا قبل الآخرة ،
ونبذ العبودية للمال او للحاكم وللشهوات ، ثم تتلوه مرحلة الانذار باسباب الشقاء الاجتماعي
والامراض النفسية والجسدية ، وطغيان الحكام وعقوق الابناء وتمردهم الذي يكمن في
الخروج عن حالة العبودية لله الى عبودية المال والشهوات والسلطان ، وانذار الناس بعاقبة
ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة حيث العدالة الالهية ، والحساب والجزاء لكل ما فعله الانسان من
خير او شر .

بالانذار والتنبيه تكون اخر محطات التوجيه الرسالي للنبي محمد ص بينما نرى الكثير من
الاباء ينطلقون مع ابنائهم بالانذار والعقاب قبل التبشير والشهادة ، وعندها يصعب على الابناء
استيعاب وهضم تلك القيم ، لانها نزلت على افئدتهم بالمقلوب ، فتكون مفاهيم الاسلام في
نظرهم قطع اليدين ورجم الزانية ، واسقاط الجدار على اللائط ، او يكون عبد الملك بن
مروان وهارون العباسي وغيرهما نماذج تعكس الحكم باسم الدين .

لقد انسحبت هذه الرؤية الى الشارع ، والحاكم كما راينا في مدارس طالبان وحكمهم ، او
الوهابية وارهابهم التي تمسكت ببعض القران وبفهم بائس وتركت البعض الآخر ، وقراته
بالمقلوب ابتداء بايات العذاب والانذار قبل ان يشاهد الناس حلاوة الايمان ، ويقطع اليدين قبل
اشباع البطون ، او بتوفير الامكانات لتزويج الشباب قبل احكام الرجم ، ويتذكرون بايات
العقاب وقد نسوا آيات المودة والرحمة والسعادة .

ماذا يمكن ان ينتظر المجتمع من ابناء تخرجوا الى الحياة وهم يحملون نظرة بعيدة عن
الرسالة ، واذا لم يكن الدين لهم عاصما من الانحراف فمن ذا يكون ؟

ب - أزمة القدوة الحسنة ..

على امتداد التاريخ البشري جاهد الانبياء والمرسلين ومن تبعهم من المصلحين لتوجيه الناس الى سبيل الرشاد والحرية والكرامة ، متخذين اساليب اوضح عديدة في دعوتهم بما يتناسب وعقلية الناس ونضجهم ، منها المعجزة التي كانت بمثابة قوة خارقة لقوانين الطبيعة احدثت هزة عنيفة في عقول الناس وتطأطأت لها رقاب الجبابرة ، ولتوجه عقول الناس الى عبادة الواحد القهار .

وكلما عاند الناس واستكبر المستكبرين جيئ بمعجزة جديدة لتعيد التوازن للسلوك البشري والعقل الانساني ، وتعمر الخطوط الروحية المقطوعة بين قلب الانسان المتكبر وربّه . مع تنامي النضج والوعي ، وتطور العقل البشري قلت الحاجة الى اسلوب الاعجاز وتقلص دوره في التأثير ، ليتخذ الناس اسلوب القدوة الحسنة مساحة اوسع في توجيه الرسالي ، حتى اذا بلغ الزمن عصر خاتم الانبياء محمد ص غدا اسلوب التأثير الاخلاقي المباشر احكم الاساليب في هداية الناس واخراجهم من الظلمات الى النور . اليوم وبعد ان بلغ العقل البشري الى عنان التكامل والنمو لم تعد لاساليب الاعجاز مكانا وبات الناس لايتأثرون الا بالمشاهد والصور والوقائع التي تحاكي العقل وتتناغم مع المنطق قبل ان تحاكي النفوس والقلوب .

ولذلك نرى كيف انتشر الاسلام في شرق وجنوب اسيا عبر احتكاكهم مع سلوك ثلة من التجار المسلمين كانوا يتميزون بالصدق والامانة والاخلاق الطيبة ، في وقت عجزت فيه جحافل جيوش العثمانيين من الانتشار في اوروبا لانها اعتمدت منطق السيف والقوة .

بينما نشاهد توغل الاسلام وبكل هدوء الى اوربا بسبب التعاطي الايجابي مع الجاليات المسلمة ، في الوقت الذي يتحجم فيه دور الاسلام في قيادة الحياة في افغانستان لما تعرض له المجتمع هناك من اخلاقيات سيئة وامثلة دموية اعتمدت الاساليب الهمجية كقطع الرؤوس ووآد البنات وقطع اليدين .

مايحدث اليوم من ازمات اخلاقية عارمة سببها قحطا في القدوات الحسنة التي من شأنها ابراز الوجه الناصع للفكر الاسلامي عبر تأكيد النهج الذي يعتمد **منطق الحوار والحوار المنطقي** ، ويعتمد مفاهيم الامن والسلام لا العنف والارهاب .
في ظل هذا القحط انقطعت صلة ابناؤنا او ضعفت بالاسلام ، ولم يبق في اذهانهم غير بطولات النبي الاكرم وامير المؤمنين علي ع وقصصا من الماضي العتيق ، فمن شملته الرعاية الالهية من اولادنا وقدر له استيعاب الرسالة من قدواتها الحسنة الأولى ركب سفينة النجا ونجى بنفسه ، ومن لم يبلغ به الوعي والتكامل الى عداد تلك القدوات الصالحة فقد تخلف عن ركوب السفينة وهلك في لجاج البحر .
(مثل اهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هوى وغرق) .

ج - الأجواء الفاسدة ..

عندما تعم المودة والرحمة والايامن اجواء المجتمع تنتزل على اولادنا سحب الخير لتحرك فيهم عناصر التقدم والنهضة والعمل الصالح والدعوة الى المعروف والتكبر لكل خلق مشين . يحدث هذا عندما ينبري للمجتمع رجال صالحون ونساء صالحات ، فتممو المظاهر الايجابية كمؤسسات القرض الحسن اللاربوي ، وبرامج الترويج الجماعي ، ومشاريع اغاثة اليتام ومنظمات التعليم والتنقيف وهندسة الذات ، ومؤسسات اعمار الارض واصلاح الزراعة وغيرها .

ومن اجل ان يعم الرخاء في المجتمع والسلامة في الاسرة ويعيش الناس بطمأنينة بعد قلق وامن بعد خوف ، وشبع بعد جوع ، ويسود الامن في المجتمع كله ، الحاكم مع الرعية ، الاباء مع الابناء ، الأزواج مع الزوجات .

في ظل هذه الاجواء المفعمة بالخير والعطاء لايغني اسرة بلا مشاكل ، او مجتمعا بلا ازمات ، لان هذا لن يكون مادامت الدنيا ، واختلاف الاهواء والمصالح ، فلا تقوض المشاكل التي تحدث ، ولايهز المجتمع ازماته ، بل الاجواء الفاسدة هي التي تصب الزيت على النار لتذكي المشاكل الاسرية ، او تشعل فتيل الازمات في المجتمع .

فاذا حدث نزاع بين زوجين بسبب مشكلة خارجية او داخلية ، فانها سرعان ماتكبر لتتعقد ولتتحول الى هجر خاصة اذا تلقوا دعما من اياد خارجية تسعى الى مزيد من التخريب عبر مد الزوجين بالذرائع والحجج لتقوية جبهات النزاع ، فتكبر المشكلة وتاخذ ابعادا وحجما اكبر

من الواقع على غرار كرة الثلج التي تبدأ صغيرة وتكبر شيئاً فشيئاً ، فتصل المشكلة الى مستوى يصعب علاجه .

او قد تصادف المشكلة تدخل نفوس طيبة تسعى لاختاد نار الفتنة وحصر المشكلة في اطارها الحقيقي ، وتحديد نقاط الخطأ عند الطرفين ، والتعهد بحلها وهي لاتزال في بداياتها . لقد رايت شخصيا بعض العوائل الكبيرة لم تحدث فيها أي انفصال وطلاق طيلة مائة عام كما حدثني احد كبارها ، وهذا لايعني خلو تلك العوائل من المشاكل بل تعكس قدرة كبارها على التحكم والسيطرة على المشاكل وهي في مهدها ، والتصميم على حلها عبر الحوار والتشاور . ولكن عندما تعم حالات الشقاق والانفكك والامية الثقافية والانحدار الايماني فان سماء ذلك المجتمع تسوده سحبا تحمل الى ابناؤه طاقات سلبية وعناصر دعم ومساندة لانتاج المزيد من الخلافات وتنشيطها ، لتحمل مطر السوء وساء مطر المنذرين .

في مجتمعاتنا عموما ومجتمعات المهجر خصوصا نشاهد يوميا حوادث اجتماعية مؤلمة تهدد الاسرة بالتفكك والانفصال ، كانت اسبابها مشاكل صغيرة عجز الاباء عن حلها لانها تولد كبيرة تبلغ حجما اكبر من امكانيتها بسبب الظروف والاجواء التي تساعد على اذكاء نار المشاكل . ولخطورة الاجواء الفاسدة وتأثيرها في تهيئة عناصر الازمات الاسرية والاجتماعية فاننا نرى انفسنا ملزمين بالتوقف قليلا في هذه المحطة التي غطت سماء امتنا ومجتمعاتنا ، ولعل من ابرزها :

1 - بؤر الفساد الاجتماعي ..

في مجتمعاتنا كانت هناك محطات كثيرة لتوليد الطاقة الايجابية ، وبث الروح الايمانية وإيقاظ عناصر الخير في الانسان ، وتوجيه الابناء اخلاقيا وتربويا وعلميا . رغم بساطة اساليبها وبدائية تلك المولدات الحيوية فانها كانت تشكل الارضية الواسعة لعوامل الانسجام والالفة بين ابناء المجتمع وتدعم الاستقرار داخل النسيج الاسري . ومن تلك المحطات الندوات الثقافية ومنابر الوعظ والارشاد ، والمرجعيات الدينية والفكرية والادبية التي كانت تغزل لابنائها ثقافة البناء والعمل والتقدم ، وتبث الروح وتبعث بالامل والاخلاق الفاضلة التي كان المجتمع يستقبلها بتناغم وشفافية . ولكن للأسف الشديد قد تم تعييب تلك المحطات التوجيهية او قل تأثيرها على طبقات واسعة من جيل الشباب في عصرنا الراهن ، لتأخرها عن مواكبة الزمن ، وجمودها على الاساليب القديمة في الطرح والتوجيه سواء في الاسلوب او المضمون . فبينما نحن في القرن الحادي والعشرين وقد تغيرت حاجات الناس وعقليتها ونمط حياتها وتفكيرها ، فان الخطاب الديني التوجيهي لم يتخط اساليب القرون الماضية ، وهي لاتزال تسعى لمعالجة وحل اشكالات تلك القرون الغابرة ، وتخطب عقول تلك الاجيال ، فينبيري مثلا مفكر اسلامي كبير ليتحدث مع الناس عن كيفية اقامة الصلاة فوق القمر في حين يعاني شباب اليوم من مشكلة عدم اداء الصلاة على الارض ، او يكتب عالما اخر عن تكفير المذاهب

الاسلامية كونها تزور قبر الرسول ص وائمة اهل البيت ع في الوقت الذي نواجه فيه حملات منظمة لمسح العقل المسلم وتغييب الوعي الرسالي في ظل المؤسسة العولمية العالمية. ولم يلبث بعض الموجهين ان يغيروا من اساليبهم في النهج والطرح فضعفت امكانية التوجيه والارسال مثلما تضعف اجهزة الريسفر احيانا في استقبال ذبذبات الارسال الموجهة من القمر الصناعي ، فصار الناس في واد ومراكز التوجيه الرسالي في واد اخر . من هذا المنطلق بادرت مؤسسات فكرية واعلامية لتستحوذ على عقول الناس وتؤثر اخلاقيا وسلوكيا عليهم ، مستخدمين كل التقنيات الحديثة للدخول الى كل بيت بالصوت والصورة .

لم تكن هذه الجهود محظ صدفة بل تقف وراءها مؤسسات ايدولوجية عملاقة تبيت اهدافا وامرا دبر له بليل .

مؤسسات لايهمها اهدافا الا الربح السريع عبر الترويج لبضائع لاخلاقية وتشجع على الاستهتار بالعقل المسلم ، وعزل الاسرة عن التقاليد والعادات الطيبة ، وتدجين الناس وترويضهم للقبول بكل ماتحمل اليها تلك المؤسسات الاعلامية التي تعمل ليل نهار لهندسة الشخصية المسلمة على اساس باترونات صهيونية جاهزة تهدف الى تغييب ثقافة الردع والردع الثقافي ، والرفض لكل ماهو ظالم وجائر ، و تضييع الهوية عبر كم هائل من البرامج والمسلسلات التي تساق اليها بعناوين جذابة مستفيدين من ارقى الاخصائيين في علم الاجتماع وعلم النفس .

وبالفعل فبعد ربع قرن من عمر هذه المؤسسات تأثرت قطاعات وشرائح كبيرة من مجتمعاتنا ، واصيبت بالادمان والتبعية لهذا النهج وتمكنت هذه المؤسسات من تحويل بعض الاباء ومعهم الابناء الى متلقين صامتين لاحول لهم ولاقوة ، بعد ان كان الحوار ديدن الاسرة وسياساتها ، فتشعبت مجتمعاتنا واصيبت بالادمان والعادات الاجتماعية الغريبة كالعلاقات المحرمة بين الجنسين ، وتنامي حالات الادمان وغيرها . السؤال هو كيف تتمكن الاسرة المتصدعة التي تعاني من التفكك والازمات من التصدي للثقافات الجاهلية التي تبثها بعض المحطات الاعلامية التي تدق مسمارها فينحس الاسرة والمجتمع ؟.

ولنلق ببصيرتنا الى مديات ابعث من مواقع اقدامنا ، ولنمد بصرنا الى مدى هو جلي لنا وغائم وبعيد عن فهم وادراك الاخرين ، ولنستشرف المستقبل بعد عشرين عاما كيف يكون حال شبابنا انطلاقا من اجواء اليوم ، ثم نعود لنقف مع انفسنا وقفة لصالح ابنائنا ومجتمعاتنا وذواتنا ..

2 - الدوائر السياسية الفاسدة ..

بحكم القدرات المادية والمعنوية الهائلة التي تملكها الحكومات ، ونتيجة لهيمنتها على الارض والماء والمال والهواء فانها تملك تأثيرا كبيرا على سلوكيات الافراد وحركة المجتمع ، وعلى ثقافة الناس ودينهم وعاداتهم ، وعلى اقتصادهم ومعيشتهم ، وعلى كل شئ من قمة

الهرم الى نهايات القواعد التحتية ، وان دققنا النظر في اثرالدوائر السياسية الحاكمة نجد ان كل الخير والشر ، والسلام والارهاب ، والامن والخوف والجوع والشيع وكل الظواهر الاجتماعية انما هي بتاثير وفعل رأس السلطة وخطوطه الاولى ، فان صلح الحاكم صلح الناس وساد الصلاح ، وان فسد الحاكم فسد الناس وساد الفساد .

نحن لانتوقع من حكوماتنا بان تتخلق بأخلاق حكومة رسول الله ص او تصل الى مستوى عدالة حكومة الامام علي ع وامثاله من الصالحين في التاريخ الانساني ، فلا يتجاوز سقف توقعات الشارع الا بعضا من مساحات الاتفاق مع الشريعة والاخلاق ، ولا تتعدى مطالبينا غير عدم الابحار بسفينة المجتمع عكس اتجاه الرياح ، ولانريد غير ترك الدين وشأنه دون العبث فيه ، او السعي الى تسييسه .

لان المشكلة تكمن في ارادة بعض الحكومات للوقوف على الضد من تماسك الاسرة وصلاح المجتمع وتنمية القدرات العلمية ، بل وتسعى وبتحدي واصرار لإنهاك الاسرة والمجتمع ودفعهما باتجاه التفكك ، والتشجيع على ظلم الرجل للمرأة وامتهانها ، او غض لطرف عن العلاقات اللامشروعة بين الجنسين ، او تشجيع المجالات التي تبث الميوعة والفساد بين الشباب ، كما وتغض النظر عن نشر وتوزيع اقراص الافلام الماجنة ، وتقف وراء شبكات توزيع المخدرات بين الشباب .

السؤال الذي يقفز للذهن في هذا المجال هو لماذا تعيش بلداننا ازمان حادة في وقت يفترض ان لا تكون هكذا ازمان .. ففي بلد يعيش ازمة سكن في الوقت الذي فيه 60 بالمائة من اراضي ذلك البلد غير مستغلة بعد ، او بلد يعيش ازمة الخبز بعد كان من البلدان المصدرة للقمح من قبل؟

او من أزمة المدارس والمعلمين والجامعات ، وعشرات الاسئلة الاخرى التي تعصف بالناس وتمنع الشباب حتى من التفكير بالزواج .

ناهيك عن الحفاظ على التماسك الاسري في مجتمع بلغ فيه نسبة الطلاق اكثر من 60 بالمائة من نسبة المتزوجات ، في الوقت الذي نرى الدعم اللامحدود الذي تقدمه احدى الحكومات لمؤسسات اعلامية وثقافية لتسويق مجالات اباحية ، وأخرى لترويج المخدرات ، وأخرى تتجرب لتغيير فقه الزواج والطلاق بعد ان تجاوزت مرحلة الكفر بالدين والمقدسات والاستهتار بالقيم .

ولأن الناس تتبع دين ملوكها فان السياسات تؤثر على الناس وتغير نمط اخلاقها لتتلون بلون الحاكم ، فاذا تخلى الاخير عن الدين ترى كيف ان الناس تدفع تبعات هذا الكفر عبر قائمة الفقر والامراض والفساد ، واذا ماتلبست الحكومة بلباس الدين يدفع المجتمع انئذ تبعات الكفر والنفاق معا .

لانعني هنا بان الدين تشريع ضد السياسة أو أن السياسة حركة ضد الدين ، بل نعني ان المبدأ ضد حشر الدين وادخاله في السياسة ، فنحن مع تديين السياسة لا مع تسييس الدين . مهما كان الحل فان الحكومات الفاسدة تشكل سحابة يمطر بالشر والسوء على المجتمع الذي تحكمه ، ولا تكفي بالمجتمع ككل بل وتعمل على النفاذ الى الاسرة والافراد عن طريق سن قوانين تؤسس للفساد او الفتنة ، او بشكل تصريف الرياح واجواء تحمل المقبلات لانحراف الشباب ، او تقوم هذه الحكومات بصناعة اجواء تضغط على الاسرة من اجل تفكيك وشائج الاسرة وجعلها في مهب الريح .

3 - علماء الضلالة ..

إذا رأينا أجواء إيجابية ببناء تشع بالخير والرحمة والعطاء ، وسحائب رحمة تغطي سماء مجتمع صالح ، وأفراد صالحون يمشون على الأرض هونا ، وعادات وتقاليد طيبة نبتت في الأرض نباتا ، فأنها إشارات صريحة على وجود علماء صالحين مروا على أهل هذه القرية وتركوا بصمات طيبة .

وان رأينا بيوتا خربة خربت على أهلها فأنهارت من القواعد ، وفسادا مشاعا ، وجرمات محللة وحلال محرم او معروف مطارد ومنكر يشكر عليه ، فان تلكم من العلائم التي تعكس غياب العلماء الربانيين وحضور علماء الضلالة وابواق السلطان يسعون الى محو الفضيلة وتثبيت اركان النفاق كما هو الحال في بعض مجتمعاتنا .

هناك الكثير ممن باع آخرته بدنيا السلطان وسكت عن قول الحق وابداء النصيحة ، واعتصم عن النزول الى الشارع لأرشاد من تاه من الناس عن الفضيلة او معاضدة من تمسك بها ، واذا نطق كفر ، فمثله في القرآن كعالم بني اسرائيل بلعم بن باعورا .

(وَأَمْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ) *سورة الأعراف*

176-175

المشكلة ان هؤلاء العلماء لايشكلون خطرا على الدين بقدر مايشكلون خطرا على البيئة الاجتماعية لانهم يسوقون للناس فهما خاطئا عن الدين فيتبعهم الناس ولايامرون بمعروف ولاينهون عن منكر ، وفي النتيجة يفسد الناس بجريرة فساد ذلك العالم كما قال الرسول الاعظم ص (اذا فسد العالم فسد العالم) .

في يوم كان للمساجد ودور العبادة تأثير مهم على شد او اصر الأسرة او المجتمع كاصلاح ذات البين ، و الدعوة الى الزواج وردع العزوبية وغلاء المهور .. لم يعد للمسجد اليوم ذلك الدور المؤمل منه بسبب غياب العلماء الربانيين او تغييبهم ليحل محلهم موظفون يتبعون اوامر الدولة ويمتهنون الدين ويتقصدون العلم ويتاجرون بالفقہ .

4 - المظاهر السيئة ..

عندما ينحسر دور العلماء ورجال الفكر الربانيين والوجهاء والمصلحين في المجتمع تنقلع السماء عن سحب الاجواء الايمانية الصالحة ، وتبلغ الأرض امنها وسلامها ويشيع الفساد والامراض وتنفشى الامية الثقافية .

عندئذ تضعف حالة المناعة في جسد المجتمع ويعجز الناس على مقاومة الاغراءات القادمة اليها من وراء الحدود وتفل ارادة التصدي للعادات والظواهر السيئة ، وسرعان ماتنبت في جسد الامة حالات قحط على مختلف الاصعدة .

بعض المفكرين الجدد يلقون باللائمة من وراء هذا التفهقر الاجتماعي على انهيار الحواجز بين الامم وتحول الارض الى قرية كونية واحدة بسبب العولمة ، غافلين او متغافلين بان هذه الازمة ليست بسبب الامراض التي جنت علينا عبر العولمة بل تعود الى ضعف المناعة الذاتية في العقل المسلم كما بينا ذلك في الفصول السابقة ، الامر الذي ادى الى تقبل حالات الغزو القادم اليها عبر المظاهر السيئة الكثيرة والتي ادت الى حدوث خسائر فادحة كتلاشي بعض التقاليد الطيبة تحت ظل عناوين الحداثة وطبي القديم او محاربة الرجعية الدينية كما يصفها بعض انصاف المثقفين ، حتى غدت العلاقات السلمية عيبا والعفة والشرف نشارا والميوعة تقدما .

بالرغم من أن المظاهر السيئة قد وردت اليها من الخارج فان مكافحتها لاتبدأ من محاربة المنتج الخارجي بل عبر معالجة جذور حالة التقبل في الامة ، وفي الاوراق القادمة نشير الى ابرز تلك المظاهر السلبية الا وهي العزوبية .

ثالثا : العزوبية ..

نظرة تحليلية على البنية التكوينية لكل ماحولنا من مخلوقات ترشدنا الى حتمية انبثاق كل شئ وولادته من ازدواجية وثنائي السالب والموجب ، الذكر والانثى .. هذه الحقيقة تنسحب على عالم الحيوان بكل فصائله ، والنبات بكل انواعه ، وعلى الماء والهواء والتربة وكل مافي الارض . مع انشداد الذكر الى الانثى وبالعكس تدب الحركة ، ويستمر الوجود ، وينطلق التكامل بارادة الله تعالى ومشيئته ، ولو قدر الله لهذا العقد الدائم ان يفسخ لساخت الارض بأهلها ، وانهار كل شئ في الكون ، وساد الخراب وعم الدمار .

ولان الانسان خليفة الله في الارض، وقطبا لرحى الحياة فيها ، فان صلاح كل شئ حوله منوط بصلاحه ، وخراب كل شئ حوله تكون نتيجة لخرابه ، فان صلح الانسان صلح الماء والهواء والارض والنبات ، وان فسد الانسان فسد كل شئ .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم: 41].

ان صلاح الانسان يكمن في التجانس التكاملي لتحقيق الذات الانسانية عبر سنة الزواج ، واي مساس في شرط من شروط هذا التجانس الانساني او أي خلل في تركيبته ، او اعراض وعزوف عنه ينتج عنه سلسلة من الانهيارات المتلاحقة من امراض روحية وجسدية وفساد اخلاقي .

[يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا] النساء 1
من هذه الآية الكريمة تتبين لنا قدسية الزواج وأهميته في استقرار وديمومة المنظومة الانسانية ، وان ما نراه اليوم من مصائب صحية واقتصادية وغيرها منبعا وجود أزمة انسانية ، ولا يصلح ما فسد الا باصلاح الانسان ، وصلاحه لا يكون الا بالعودة الى السنن الالهية والالتزام بها .
ومن اهم تلك السنن سنة الزواج ، فحري بالمخلصين من المصلحين من أبناء الامة ان يعملوا من اجل تذليل العقبات بكل شجاعة ، فمن المؤسف حقا ان نرى تقاوم العلل التي تقف حائلة دون اتمام هذه السنة ، بل وتجذر تلك العقبات في مجتمعاتنا حتى غدت عرفا وعادات وتقاليد لا يرى فيها عيب او خرق او ذنب ، ولتتحول العزوبية الى سنة والزواج الى شذوذ ، والطلاق عادة والحياة الاسرية نشارا !!

ومن تلك العقبات التي تقف حجر عثرة في طريق الزواج ..

أ – غلاء المهور ..

الصداق من الصدق بما تحمل من معاني مادية ومعنوية في التعاقد الشرعي بين الرجل والمرأة .. ماديا في تصديق الرجل وتعهد باعالة الزوجة ، ومعنويا بتعهده الصادق للارتباط مع الزوجة وتوادها وتراحمها والسكون إليها ، ويكون الداعي لهذا الصداق الباري عز وجل والمؤتمن عليها وباعتبار ان الصداق او ما يسمى بالمهر في عملية الزواج يأتي من باب صياغة اطار شرعي للعقد ، فان كبر الصداق لا يزيد من مكانة المرأة وصغره لا يقلل من مكانتها وشأنها .
وان ما يزيد من شأن الصداق هو مدى صدق الزوج وتعاهده للحفاظ على هذه الوديعة التي اودعها الله لديه ، بل ان عزة الزوجة ومكانتها في تواضع مهرها كما يقول الرسول الاكرم ص (خير نساء امتي اقلهن مهورا) فهنا تتلاشى الحسابات المادية وتكون الرمزية لقيمة الصداق مع الله والزوجة في رعاية الاسرة وحمايتها .
ومن هنا يقول الرسول الاكرم.. إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

وظاهرة غلاء المهور التي ابتليت بها مجتمعاتنا دفعت الكثير من شبابنا للعزوف عن الزواج ، وهي مشكلة كانت شائعة في اوساط الملوك والسلاطين ، وعقبة خطيرة في طريق ديمومة الجنس البشري وسلامته ، ومن العوامل الاساسية لنشأة هذه الظاهرة :

أولا : تقييم خاطئ ..

لقد كرم الله تعالى الانسان وجعله سيدا على مخلوقاته وفضله على الكثير من الكائنات بنعمة العقل والحرية والكرامة ، فلا تقاس المرأة بجمالها او حسبها ونسبها بل بما تحمل من قيم ونبل واخلاقيات .
وعندما ابتليت مجتمعاتنا في منظومتها الفكرية ، واصيبت بالتخلف الحضاري ، تبدلت نظرتة ونظريته للكثير من القيم التي استبدلت بقيم
من صنع البشر لاترقى الى اسعاد البشرية ، او قيم اقتطعها من بعض ماكان سائدا في حياة ملوك الامويين او العباسيين ، ومنها قراءتهم للمرأة كونها وسيلة اشباع رغبة ليس الا .
لقد ترتب على هذا الفهم المبتسر للمرأة انه اصبح ابتداء غطاء لمواصلة استعبادها كمخلوق تابع للرجل ، ومرورا بتقدير قيمتها من خلال غلاء مهرها ، وانتهاء بحجر المرأة في المنزل ومنعها من التعلم والتعليم والعمل وقيادة السيارات .. الخ
في الكثير من الاحاديث الشريفة يصور لنا الرسول الاكرم ص كيف ان الله اعز المرأة وجعلها كفؤا للرجل ، وفي كثير من الاحيان خير منه كما ورد في الحديث الشريف (لامرأة صالحة خير من رجل صالح) .

ثانيا : المنطق التجاري ..

حقيقة ان كل اناء بالذي فيه ينضح ، فاذا كانت العقلية السائدة في المجتمع تركز على العلم والمعرفة فانها ينضح منها سلوكا يدعو الى تقديس العلم والمعرفة واعطاء الكتاب اهميته كما هو حال المجتمعات المتطورة والمزدهرة ، حيث نرى غالبية راكبي قطار الانفاق (المترو) مثلا بايديهم صحفا وكتبا منهمكون بمطالعتها ، في الوقت الذي نرى في بلد مسلم ان راكبي المترو يغرقون في نوم عميق !
وقد تكون العقلية السائدة قائمة على حب المال ، فنرى اثر ذلك في سلوك ابناء المجتمع حيث التنافس على مزيد من ربح الاموال وجنيها بغض النظر عن نزاهة الاسلوب وسلامته . حدث ذلك في بعض مجتمعاتنا عندما غابت عنها العقلية القيمية وغلب عليها حب المال الذي تحول الى ميزان للتفاضل بين البشر .
ليس غريبا على هكذا شرائح اجتماعية ان تنتظر للمهر بعقلية تجارية بحتة ، وتحويلها من صداق ومعاهدة مع الله تعالى الى صفقة تجارية مربحة ، وقد نسي الناس بان سعادة الفتاة ليست في غلاء مهرها بل في اختيارها الحسن والسليم للفتى الحر الكريم ، وصدق الرسول الامين ص عندما قال : من جاءكم ترضون خلقه ودينه فزوجوه) .
وأن المهر هو بمثابة اظهار لرغبة الرجل ومودته لزوجته ، لا ثمنا للمرأة كما يقول بصريح العبارة:

(وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا).

(النساء: 4)

ثالثا : مباحات فارغة ..

نتيجة لجهل الامة اصيب بعض الناس بمرض العشو الذي يحجب البصيرة عن معرفة كنه القيم وعلل الشرائع الالهية .

الامر الذي جعل هؤلاء يبنون تصوراتهم على اسس سطحية لاتستطيع سبر غور المعارف وجوهرها . فنظرة هذه الطائفة من الناس الى حج بيت الله الحرام مثلا لاتتجاوز حدود الامتياز الذي يستأكلون من ورائه السمعة ويستردون المنافع ولاينظرون الى هذه العبادة كواجب شرعي يراد من ورائه استئصال كبرياء الانسان وغروره ، ونسف صفة الاستعلاء والكبرياء لديه .

وكذلك نظرتهم الى الصوم الذي لايتجاوز التقليد الاجتماعي الذي يحمل معه الطرب والسهرات والاكلات اللذيذة والمسلسلات التلفزيونية .. لا كعبادة ترمي الى تركية النفس ، وصقل الشخصية ، والعودة الى الذات بعد غياب طال عام من الزمن .

او نظرتهم الى المهور كوسيلة للمباحات الفارغة بين الناس لابرار مقام الفتاة وقيمتها المادية عبر فاتورة المهر وليس اعتبار المهر مجرد وسيلة رمزية تعبر عن الصدق في التعامل مع العقد المقدس .

ب - نقص الخيارات المتاحة ..

العلاقة الزوجية السليمة مرهونة بنجاح الطرفين للاختيار على أسس متكافئة في القواعد الجوهرية للحياة كالدين واللغة والتربية المشتركة ، وقد يتدخل الابوان في مساعدة الفتى أو الفتاة لتقويم الاختيار وأرشادهم الى المؤهلات والصفات الاساسية لشريك الحياة على قاعدة الحديث الشريف .. اختاروا لنطفكم فان العرق دساس .

الاحاديث الشريفة تدعو الى ان لا يكون جمال المظهر قيمة عليا في التفاضل للاختيار ، بل تكون القيم والصفات الاخلاقية كالشهامه والكرم والايمان والخلق الحسن في الرجال ، والتقوى وصباحة الوجه والحنان كصفات مثلى للفتاة .

ينبغي ان لا يفهم من هذا بان الاسلام يلغي اهمية الجمال في الاختيار لانه دين يتعامل مع الحياة بواقعية ، وفي الوقت نفسه يرفض ان يكون الجمال الغاية والوسيلة الوحيدة في الاختيار.

ومن خلال استشراف تجارب الحياة تعلمنا بان الجمال الظاهري قشرة تزول مع الايام ولا يبقى للانسان الا القطع الداخلية الجميلة ، ولا يدوم غير جمال الروح ، ورقة الادب ، ودفى الرحمة .

تلثم الجواهر الثمينة التي لا تبلى مع الايام ولا تشيب ، والاسلام يراهن على تلك العوامل التي تترسخ كلما طال العمر ومر الزمن ، تماما كالذهب والمعادن النفيسة التي مهما اكل عليها الدهر وشرب فانها لا تفقد جوهرها ، بل ربما تزيد لمعانا وتألقا .

فقد تتداخل عوامل قاهرة تسعى لتكبييل الشباب وعرقلة عملية الاختيار او تضيق من فرص البحث عن شريك المستقبل كما سنيين ، وكلما مرت الايام وزادت الهوة بين الامة واصالتها اقتربنا اكثر الى الاعراف والثقافات الدخيلة التي تسعى دوما لوضع العصى في عجلة الاختيار كالمهور الغالية والتكتيكات الجديدة الباهضة التكاليف ، كالحفلة والمطرب والمطعم وامورا اخرى تدفع الشباب الى الاستسلام للعنوسة والعزوبية ، وتجميد الطاقات الحيوية .

وهناك عوامل اخرى مهمة تعرقل من فرص الاختيار منها :

أولا : البحث عن يوسف ..

من حق الفتى او الفتاة الابحار في أعماق المجتمع للبحث عن أفضل الخيارات ، وأختيار شريك الحياة ... ومن شروط الابحار السليم هو الغوص للبحث في اطار الممكن المناسب لا الصعب المستحيل .. وفي حدود الواقع لا الخيال .

ليس امام شبابنا غير تلك الفتيات ، وما عليهم الا ان يختاروا بما يتناغم مع اخلاقهم ودينهم وثقافتهم من بنات مجتمعنا ، وعليهن ان لا يبحثن عن فتى المستقبل من وحي الخيال ، بل يقبلن بما يتناسب من بين الموجود من الشباب .

المشكلة ان بعض فتياتنا يقضين عمرهن بالبحث عن فتى يشبه يوسف ع في جماله وقد نست بانها ليست كفوًا ليوسف في ادبه ودينه وتقواه ، كما ان بعض شبابنا قد شابوا وهم يبحثون عن فتاة تحمل جمال المطربة السيئة الصيت هههههههه وتحمل في الوقت نفسه أديا وأيماننا وشرفا !

للأسف ان هذه الظاهرة بدأت تستشري في اوساطنا نتيجة التخلي عن كنز القناعة والنظرة الواقعية والافلاس الثقافي والقيمي في اوساط الشباب ، او بسبب الجذب الروحي الذي تعيشه الاجيال الجديدة نتيجة البعد عن الايمان ، الامر الذي ادى الى البحث عن شريك المستقبل من بطون المسلسلات المدبلجة .

ومما يبكيها بدل الدموع دما اننا نقرأ في بعض الصحف عن عوائل قد فرق بينهم الطلاق نتيجة احدى المسلسلات التركية المدبلجة .

ترى الى أين نحن سائرون ؟

ثانيا : هجرة الشباب ..

غرقت بعض المجتمعات في غمار الحروب والازمات والغزوات التي جنت عليها ، وغيبت الكثير من الشباب في اتون نيرانها ، واجبرت اخرين الى الهجرة والبحث عن ملاذات امنة ولو في اصقاع الارض ، ليدفع هؤلاء ثمن عبقریات زائفة او يكونوا ضحية جنون العظمة لدى مهندسي القرار السياسي .

لانريد هنا الخوض في اسباب نزيف الادمغة ، وانما نشير فقط الى ان شعور الشباب بالغربة في اوطانهم دفعهم للحنين الى الغرب حيث الحرية والديمقراطية .

وقد يكون هذا المناخ انعكاسا لازمات اقتصادية خانقة تدفع الشباب للبحث عن قوارب نجاة تتقاذهم من مرارة واقعهم حيث الجوع والفقر والفاقة .

وقد تكون هذه الحالة مخططا مدروسا من قبل مؤسسات خارجية منظمة هدفها تفرغ مجتمعاتنا من القدرات والطاقات الفاعلة .. ومهما كانت الاسباب فان النتيجة واحدة وهي هجرة الشباب ، وضياح الخيارات المناسبة امام فتياتنا ، الامر الذي يدفع بهن للقبول بما هو موجود حتى على حساب الكفاءة ، او التزام جانب الصمت والصبر والعزوف عن الزواج .

ليت الخطر يتوقف عند هذا الحد لاننا نرى جيلا جديدا من الشباب قد نشأ وترعرع في غربة المهجر ، وقد أبصر على فتيات من ملل ونحل اخرى غريبة عن مبادئنا وعاداتنا وديننا .

قد يرى بعض شبابنا الناشئ في استقطاب شريكة الحياة من الشرق حلا وحيدا لملئ الفراغ هنا او هناك ، لكن هذه الرؤية لاتخلوا من مخاطر بسبب التباعد الثقافي بين الشرق والغرب .

لسنا هنا بصدد الوقوف امام هذا الحل لانه لاخيار لنا غيره شريطة توخي الدقة والعناية في الاختيار ، فمهما تباعدت الاجواء بين الشرق والغرب ، فان ثمة قواعد مشتركة كبيرة ومساحات التقاء وتجانس واسعة تجمعنا اكثر مما تباعد بيننا .

ولكن اذا كان هذا الخيار ممكنا لشباب المهجر فانه ليس لفتياتنا في الشرق من خيار غير القبول بما هو قادم من الغرب أو الانتظار الى اجل غير مسمى .

ثالثا : الفقر والبطالة ..

ليست مشكلة الفقر والفاقة المتفشية في بلداننا بسبب التكاثر السكاني الهائل وقلة الموارد بل تكمن في ازمة توزيع الثروة ، والا ما هو سر البطالة والفقر في بعض بلداننا العائمة على بحيرات من البترول والمنابع الطبيعية ؟

لو طرقتنا باب علم رسول الله ص أمير المؤمنين علي ع فانه يخبرنا بأن فقر الكثير من الناس يكمن في الغنى المفرط عند بعض المترفين ، بقوله (مارأيت نعمة موفورة الا والى جانبه حق مضيع) وان سبب الجوع هو الشبع المفرط عند بعض المسرفين الذين استحوذوا على ثروات الناس وسلبوا مواردهم بقوله (ماجاع فقير الا بما متع به غني) .

لسنا هنا بصدد تحليل العوامل المؤدية الى الفقر بل مايعنينا هنا هو ان من نتائج الفقر ابتعاد الناس عن التحصيل العلمي والتغذية الثقافية لان من لايملك قوت يومه لايستطيع ان يتعلم او يبحث عن علم ، وبالتالي افرز الفقر فئة من الشباب يعاني الامرين بسبب البطالة وضنك العيش وازمة السكن والادمان وازمات لاعد لها ولاحصر جعلت الباب مغلقا امام التفكير بالزواج والتفكير بتشكيل اسرة .

وهكذا تترى العقبات لتتراكم كالطود العتيد معرقلا أندفاع الشباب الى الزواج بسبب غلاء المهور والبطالة بعد ان فتحت حكوماتنا الباب صرعًا امام توظيف الخبرات الاجنبية بل حتى اليد العاملة الرخيصة من الخارج على حساب اوضاع شبابنا من الجنسين الذين يبكون كالحيارى لايجدون بصيص امل او نور في نهاية النفق .
وحتى لو وجدت الفتاة من هو كفؤ لها تجده عاطلا عن العمل او عاجزا عن الحصول على مسكن ولو متواضع ليقيم فيه حياة مشتركة .

.. الخوف من الزواج الجديد ..

لايتوقف اثار الانفصال او الترميل عند انهيار الاسرة وتفككها فحسب بل يسفر عن نتائج بعيدة المدى على سعيد المجتمع بشكل عام والمرأة بشكل خاص .
من آثار الانفصال حزمة هائلة من الاحباط واليأس من الحياة والتطور والبناء ، وان فقدان الثقة بالنفس يحول حتى من التفكير في تجربة حياة زوجية جديدة .
في ظل هكذا جو سلبي يتحول الاحباط الى ثقافة سلبية واحتقان داخلي يطفئ كل بارقة امل في طريق المطلقة او الارملة التي قد تجد البعض منهن الموت اهون لديهن من التفكير بتجربة حياة زوجية جديدة ، خصوصا نحن ننحدر من اصول اجتماعية وعرقية ومناخات بيئية تنتظر بمعايير اخلاقية لمسالة الاختيار والزواج والارتباط بالنصف الاخر ، حيث نبقى اسرى ثقافة معينة تبقى مؤثرة وملازمة حتى لبعض المطلقات المسلمات وهن في الغرب ، حيث يعيشن جسدا في الغرب وبعقول وثقافة شرقية تنتظر حظها قد ياتي او لاياتي .
الطلاق وان كان أبغض الحلال ، والترمل وان كان قدرا مؤلما الا انه يبقى في دائرة الامكان ، واللبيب هو الذي يستفيد من المطبات والكبوات كدروس وعبر من اجل بناء مستقبل لا يتم فيه تكرار اخطاء الماضي ، وكما يقولون فالضربة التي لاتقضي عليك تقويك شرط ان تستفيد منها وتثمرها بشكل ايجابي وليس سلبي مدمر لكل ما هو ايجابي انطلاقا من رؤية قاتمة نابعة من تجربة حياتية او زوجية فاشلة .

ولا يستطيع الانسان من احتواء الضربة وتحويلها الى طاقة ايجابية مالم تتوفر لديه القدرة على الامتصاص التي نعبر عنها بالقدرة الكيماوية او لا .
فمن دون هذه القدرة تموت المرأة وهي واقفة ، وتغلق ابواب الحياة في وجهها وتستسلم للياس والقنوط .

هنا يأتي اهمية الدعم الايجابي المفترض تقديمه من قبل المجتمع لتوجيه المطلقة او الارملة في ايقاظ قدراتها الكيماوية ، ومن ثم مسانبتها معنويا لتسهيل قبولها بامكانية بدء حياة زوجية جديدة ، وكذلك انقاذ الأزواج الذين لا يملكون تلك القدرة عبر ترشيدهم وتقوية ارادة الحياة لديهم .

هذا يعني ان الخروج من الازمات الاسرية تحتاج الى مرحلتين ..
الاولى ذاتية تكمن في عودتهم الى ذواتهم واعادة تقويم الاخطاء السابقة ، والثانية اجتماعية تكمن في الدعم الاجتماعي لتسهيل احتواء الصدمة الناجمة من جراء الفشل الاسري ، وامكانية خوض تجربة قد تكون انجح بكثير من التجربة الماضية التي ربما دخلت عوامل كثيرة خارج اطار ارادة الزوجين في اتمام الشراكة القسرية او غير الطبيعية .
كانت هذه صورة الأزواج الذين يتم انتشالهم من تحت ركام الكيان الاسري المنهار ، واذا كان بمقدور الرجل خوض تجربة ثانية وثالثة وحتى رابعة ، فان المجتمع يحكم على المطلقة والارملة بالسجن المؤبد في زناينة اليأس والاحباط ، فقد نرى الاف الارامل والمطلقات لم يبلغن العقد الثاني من العمر .

تري ماهي الخلفية الثقافية لهذه الظاهرة ؟

أولا : العادات والتقاليد الاجتماعية ..

بالاضافة الى التركة النفسية الثقيلة التي تحملها الارملة او المطلقة على كتفها وتتوء بحملها الثقيل ، فان عليها ايضا ان تتحمل ضغوطات المجتمع الذي ينظر اليها وكأنها سلعة مستهلكة او متهممة .

بينما تتحذر الدوائر الرسمية من تشغيلها فان شركات السكن تتحاشى من تاجيرها سكنا ، ويضيق عليها صدر العوائل القريبة التي تخشى فتح ابوابها خوفا على بنيانها الاسري الهش ، كما وتتحجم علاقاتها الاجتماعية بسبب نظرة المجتمع لها كصياد يبحث عن فريسة هنا او هناك .

وهكذا تضيق بها الارض بما رحبت ، ويحكم عليها بالحجر الانفرادي وكأنها تحمل فيروسا معديا ، هذه الظاهرة تكشف لكل من ألقى السمع حجم التصحر الثقافي للامة التي تخلت عن اصالتها وهويتها ، ثم انتهت لتنتخلى عن ابناءها ابتداء من الحلقات الضعيفة فمرورا بالقوية ، والافنحن لم نر مثل هذه الظاهرة فيما سلف لان المجتمع كان يحتوي هذه المطلقة او الارملة ويسارع في الوقوف معها ويساندها معنويا بينما يسعى عقلاء القوم الى تزويجها قبل الباكر من النساء ، وقلما كنا نشاهد امرأة مترملة او مطلقة بلا زواج ثاني او ثالث .
لكنها اليوم عليها ان تخترق حجب السموات السبع من اجل اثبات حقها في الزواج الثاني ، وحجب العادات الجديدة التي تكمن في ثقافة اقضاء هذه المرأة من المجتمع .. حجب ملايين العوانس البواكر .. وحجب ازمة الشباب الشباب بسبب الحروب والكوارث .. وحجب

الفقر والبطالة وازمة السكن .. وحجب الاحباط والانكسار النفسي .. وحجب النظرة السلبية للمجتمع .

ثانيا : عمر تعدى الثلاثين ..

الزواج ضرورة نابعة من حب البقاء والاستمرار في الحياة ، وهو من مقتضيات التكامل الانساني ، ولايتوقف الامر على مقدار سني الانسان وعمره ، فطالما جرى الدم في عروقه ، وتوقف حياته على الاكل والشرب والعبادة والتعلم ، فان حياته وسعادته تتوقف على الارتباط العضوي بامرأة تشاطره الامال والالام في دروب الحياة المختلفة والمتعرجة .
الثقافة الانسانية تنظر الى المرأة كشريك اساس لا يكتمل الا بالتحاق النصف الثاني منه ، ومن دون هذا التلاحم تبقى شخصية الانسان ناقصة وهزيلة

بيد ان الهروب الجماعي من تلك الثقافة الاصيلة ، ثقافة الحياة والاسرة ، ثقافة الرحمة والتوادد الى ثقافة المظهر على حساب الجوهر ، وثقافة المسلسلات التي جعلت المرأة ينظر اليها كمشروع جنسي بحت !

وباعتبار ان العمر يعد ركنا اساسيا في هذا المشروع ، وكلما طال عمر المرأة تفهقر وتراجع العنوان الجنسي فيها ، وان تجاوز عمر الثلاثين لم يعد مشروعا ناجحا يلبي متطلبات الرجل الفارس الذي جردته العولمة عن السيف والفرس !
ان الذين يجعلون من العمر والجنس مقياسا وهدفا للزواج يخطأون مرتين :

الاولى .. عندما يعتبرون الجنس هدفا، فماذا بعد الجنس، وعن السعادة والامان والعمل والتعلم والثقافة والتعبد والوف المفردات الحياتية الاخرى ؟

ولان سقف هذا الهدف متواضعا فان الأزواج لا يستطيعون تلبية متطلبات الحياة فيصابون بالاحباط والفراغ والانهيار منذ السنين الاولى من الحياة الزوجية ، وكلما جعل الزوجان سقف طموحاتهما عاليا كانت رحلة حياتهم اطول واجمل ، فان كان الكموح في تحقيق السعادة والشعور بالامن والسلام والحب والرحمة وتربية الجيل الجديد ، كانت حياتهم اسعد ، ومالجنس الا احد الوسائل لتحقيق الالفة والسكينة لدى الانسان ، واذا خمدت جذوة الجنس او قد الزوجان جذوة الحب والمودة بينهما ، جذوة حب الابناء وتربيتهم تربية صالحة ، وجذوة استمرار الحياة على اساس الرحمة والتراحم .

الثانية .. عندما ينظر المتورطون من الرجال الى المرأة باعتبارها مشروع لذة ونزهة عارضة فماذا ان امتلأ الرأس شييا ، وذهب المرض بقوته وأوهن العظم منه ؟

وماذا لو أصيب بالمرض أو العجز ، فكيف تكون نظرة المرأة اليه حينئذ ؟
هذه الحقائق تدلنا على ان لكل عمر ومرحلة لذة ، ولذة بدايات الزواج هي ليست كاللذة في
اواسطها أو عند نهايات العمر ، ففي بداياتها تكون لذة مادية عالية تصاحبها لذة معنوية بسيطة
مما تسبب مشاكل في العلاقات الزوجية قد تصل الى حافة الانفصال ان لم يتحكما الى العقل
والحكمة .

وفي اواسط العمر تكون اللذة المادية متساوية مع اللذة المعنوية ، فتكون السعادة والامان
في كفة ، والمشاكل الزوجية في الكفة الأخرى ، وإذا تجاوز الزوجان هذه المرحلة بحكمة
فانهما سينتصران الى الأبد .

وفي نهايات العمر تكون اللذة المادية قليلة وبسيطة حين تجف الغرائز الجنسية ، بينما
تكون اللذة المعنوية في اوجها ، فتكون الزوجة سكن ورحمة للزوج ، ويكون الزوج امانا
وكهفا حصينا للزوجة.